بحوث في فقه السيرة النبوية

فقه التعامل مع المخالف

(دراسة في الطرق الصحيحة في التعامل مع المخالف من خلال دعوة النبي ﷺ قبل الهجرة)

سيف النصر علي عيسى

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

تكملة لما بدأناه من دراسة السيرة النبوية وتوضيح معالمها للناس في ما كتبناه من كتب مثل "صفحات ندية" و"محمد نبي الإسلام الرحمة المهداة" وأخلاقيات الحرب في ضوء السيرة النبوية" ومقومات النجاح في دعوة النبي ﷺ" و"الحوار في ضوء السيرة النبوية" جاء هذا الكتاب" فقه التعامل مع المخالف" ويليه إن شاء الله تعالى" الرحمة في حياة النبي ﷺ".

فالأمة الإسلامية اليوم وقعت في محن وإحن، وصراعات في كل مكان، ومع كل الاتجاهات الدينية والعرقية مقارنة بين ما وقع فيه النبي ﷺ في بداية دعوته، ليرى كثيرا من التطابق بين العهدين من حيث المواجهات التي تواجهها الدعوة ورجالها من تصلت الأصاغر عليها من الداخل، وتكالب الذئاب والوحوش الضارية من الخارج، كل يريد طعمته منها قبل أن تنتهي الفريسة، ثم السوس الذي ينخر في عظامها من الداخل من جهلة متعالمين لا

يدرؤون مفسدة ولا يقدمون مصلحة، يحفظون أحرفا من الدين، يرددونها بحناجرهم، من غير أن تصل إلى قلوبهم ليفقهوها على النحو الذي أراده منه ربهم.

فصار تعامل المسلمين مع بعضهم البعض أشد من تعاملهم مع الكفار، وخاصة بعض الدعاة، الذين ينظرون إلى مخالفيهم نظرة البغض والكراهية، وكأنه مرتد، وتتعالى صيحاته بالتحذير منه ومن قراءة كتبه، حتى ولو كان الخطأ في كتاب واحد، فيشمل التحذير كل ما يكتبه، لأن الهدف هو إسقاط الشخص لا تبيين الخطأ، وإننا ننظر اليوم إلى هذه الصيحات التي تعمد إلى إسقاط الرموز في كل بلد، ما هي إلا مخطط صهيوني خبيث لضرب الإسلام، وإن كان مثل هؤلاء الدعاة لا يدركون الحقيقة، فهم ينساقون وراء هذه المخططات دون دراية، وذلك راجع إلى خبرة عدونا بنا وجهلنا به، فلقد أفسدت دعوة هؤلاء الكثير، وصار العلم يتلقى من الأصاغر، عندما سقط الأكابر تحت قذائف التحذير والتبديع والتضليل. نسأل الله تعالى العفو والعافية.

فالعهد المكي هو بمثابة المرحلة التدريبية التي ربى النبيﷺ عليها أصحابه لتحمل عبأ رسالة الإسلام وتبليغها إلى الخلق، ولذلك مر هذا العهد كأشد ما يكون على النبي ﷺ وأصحابه، من صراعات قبلية، وفتن وبلاءات، واضطهاد، وتصدير الآراء والأفكار التي تخالف معتقدات قريش.

فكان هذا العهد: هو المرحلة التي قد تمر على الأمة في يوم من الأيام، فلابد لها من فقه ودروس وعبر تصاحب المؤمن في حياته، وخاصة الداعية والعالم، لتكون لهم النور في إرشاد العباد وصحبتهم إلى السلامة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في حديثه الذي رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ »(١).

فالعودة إلى الغربة أمر قدري، فلابد من المجابهة والمواجهة، لكن بما رسمه لنا النبيﷺ وخطه في هذا العهد الذي بدأ فيه غريبا حتى لا يجرفنا تيار الجهل والغباء إلى حيث هلاكنا، فعلى هديه نسير وعلى منهاجه نصبر ونحتسب حتى نصل إلى بر السلامة، ونلقى النبيﷺ على الحوض غير مبدلين ولا محدثين.

كان النبيﷺ في مكة قبل الهجرة يتعامل مع المخالفين له من الكفار باللين تارة وبالصبر على آذاهم تارة، وبالشدة تارة، بالترغيب تارة، وبالترهيب تارة، على حسب ما يقتضيه الحال وتتحقق به المصلحة، غير أن في هذا العهد لم يكن ثم قتال بعد، ولم يرفع فيه سلاح. ومع ذلك انتصر النبي ﷺ ومن معه وتحقق للمسلين ما وعدهم الله إياهم.

---

(١) مسلم (٣٨٩).

وأيضا سيتحقق ما وعد الله تبارك وتعالى لنا إن نحن سرنا على نفس الطريق ونهجنا نفس المنهج، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥] وإن نحن بدلنا وغيرنا وانتكسنا واتبعنا أهواءنا؛ فسوف يأتي الله بمن هم خير منا، ينصرهم ويثبت أقدامهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤].

فلنقتبس من هذا العهد المبارك إضاءات نستبصر بها طريقنا في خضم هذا الموج الهائل من الفتن التي تحوط بنا من الغرب والشرق ومن أنفسنا، إشعاعات من هدي النبيﷺ، وخير الهدي هديه، وأفضل الطرق ما سار عليها. فكان لي شرف الكتابة والإسهام في هذا الموضوع، وهو عبارة عن أسطر من كتاب تاريخ ثلاثة عشرة عاما من دعوة النبي ﷺ في هذا العهد. لعلي أكون قد أسهمت في إخراج ولو شمعات قليلة، تضيء ظلمات الجهل وتزيل الفرقة بينا، وتعيد الوحدة إلينا من جديد علي قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران: ١٠٣].

هذا وقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: تمهيد

بينت فيه معنى عنوان الكتاب، وذكرا لأحوال الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي سبقت ولادة النبي ﷺ ومبعثه. وذكرت فيه تاريخ ولادة النبي إلى حين بعثته إشارة إلى بعض الأحداث التي وقعت في هذه الحقبة الزمنية.

القسم الثاني: تعامل النبيﷺ مع المخالف في الفترة التي قضاها في مكة قبل دخوله المدينة.

والأساليب والطرق التي استخدمها النبي ﷺ في التعامل مع المخالف له، والدروس المستفادة من ذلك في واقعنا لمعاصر.

وقد راعيت صحة الأحاديث والأخبار، فلم أورد في هذا البحث حديثا ضعيفا أو خبرا فيه ضعف إلا نادرا لربط الحدث فقط، وكان الخبر مشهورا بين أهل السير.

هذا فإن كنت وفقت فمن فضل الله علي ومنه وكرمه، وإن أخفقت فمن نفسي والشيطان، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر لنا جميعا وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلي الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

سيف النصر علي عيسى

القسم الأول

تمهيد

هذا التمهيد بمثابة تعريف بشخصية النبي ﷺ ونشأته، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية والسياسية التي كانت تحيط بهذا العهد، حتى يكون استخلاص الدروس والأحكام أمرا يسيرا، وحتى ينجلي القياس ونسير على هدي قويم.

الفصل الأول

اطلالة حول عنوان الكتاب

المبحث الأول

تعريف الفقه

أولا: تعريف الفقه لغة:

الفِقْهُ بالكسر: العِلْمُ بالشيءِ والفَهْمُ له والفِطْنَةُ[١]

وقيل: عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه[٢]

وقيل: دقة الفهم، ولطف الإدراك

وكل هذه المعاني جائزة في الفقه.

ثانيا: الفقه في الاصطلاح:

هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل، ولهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فقيها لأنه لا يخفى عليه شيء.[٣]

ويطلق في علم الأصول على: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية.

ثالثا: الفرق بين الفقه والعلم

أن الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله ولهذا لا يقال إن الله بفقه لأنه لا يوصف بالتأمل، وتقول لمن تخاطبه تفقه ما أقوله أي تأمله

---

(١) القاموس المحيط (ص: ١٦١٤)

(٢) التعريفات (ص: ٢١٦)

(٣) المصدر السابق

لتعرفه، ولا يستعمل إلا على معنى الكلام قال ومنه قوله تعالى ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٧٨].

وأما قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤] فإنه لما أتى بلفظ التسبيح الذي هو قول ذكر الفقه كما قال ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: ٣١] عقب قوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن: ٢٩].

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله: وسمي علم الشرع فقها لأنه مبني عن معرفة كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ(١)

(١) أنظر معجم الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٨١)

المبحث الثاني

المخالف

أولا: تعريف المخالف لغة:

الخِلافُ: المضادّةُ، وقد خالَفه مُخالَفة وخِلافاً

وفي المثل: إنما أَنتَ خِلافَ الضَّبُعِ الراكبَ؛ أَي تخالِفُ خِلافَ الضَّبُعِ؛ لأَنَّ الضَّبُعَ إذا رأَت الراكِبَ هَرَبَتْ منه حكاه ابن الأَعرابي وفسّره بذلك .

ورجل خالِفٌ وخالِفةٌ؛ أَيّ يُخالِفُ كثيرُ الخِلافِ.

وتَخالَفَ الأَمْران واخْتَلَفا: لم يَتَّفِقا وكلُّ ما لم يَتَساوَ فقد تَخالف واخْتَلَفَ[١]

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

الخلاف: منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق جواز إبطال باطل، ذكره ابن الكمال.

وقال الراغب: الخلاف والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الأول في فعله أو حاله[٢].

ثالثا: الفرق بين الاختلاف في المذاهب والاختلاف في الاجناس

---

(١) أنظر لسان العرب (٩/ ٨٢).

(٢) أنظر التعاريف (ص: ٣٢٢).

أن الاختلاف في المذاهب: هو ذهاب أحد الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

والاختلاف في الاجناس: امتناع أحد الشيئين من أن يسد مسد الآخر ويجوز أن يقع الاختلاف بين فريقين وكلاهما مبطل كاختلاف اليهود والنصارى في المسيح.[١]

رابعا: أنواع المخالفين

النوع الأول: أهل كفر وهم أصناف:

الصنف الأول :أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى

الصنف الثاني: أهل الوثنية ، وهم عقائد شتى من بوذية وبرهمية ومجوسية وزرادتشية، وكنفوشسية وغيرهم

الصنف الثالث: أهل الالحاد، ويشمل اللادينيين والملحدين والدهريين

الصنف الرابع: الزنادقة ممن ينسبون أنفسهم للإسلام، أمثال النصيرية والروافض والإسماعلية والبهائية والقاديانية وغير ذلك.

النوع الثاني: أهل الإسلام وهم أصناف:

الصنف الأول: أهل بدعة، وهم الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة من معتزلة وخوارج ومرجئة وصوفية وجهمية وأشاعرة وغيرهم.

الصنف الثاني: أهل الفقه المتعصبون لمذاهبهم.

---

(١) الفروق اللغوية (ص: ٢٨).

الصنف الثالث: الجماعات والتيارات المنتسبة للإسلام وكل جماعة تتعصب لما هي عليه مثل الأخوان والجماعات الإسلامية و جماعة التبليغ وغيرهم.

الصنف الرابع: من ينتسبون إلى شيخ ما فيوالون عليه ويعادون عليه.

النوع الثالث: أصحاب الفكر المشترك بين أهل الكفر والالحاد وبين أهل الإسلام.

الصنف الأول: الاشتراكيون

الصنف الثاني: العلمانيون

الصنف الرابع: الليبراليون والديمقراطيون

خامسا: أنواع الخلاف:

الخلاف نوعان:

النوع الأول: خلاف تضاد

وهو أن لا يتقابل الطرفان في شيء مثل الألحاد والوثنية مع التوحيد، ومثل الحرام والحلال، مثل تحريم الزنا وتحليله، وتحريم الخمر وتحليله، فهنا لا يلتقي الطرفان

النوع الثاني: خلاف تنوع:

وهو أن يكون احتمال الالتقاء بين المختلفين واقع، وأن تكون المسألة المختلف فيها في حيز الاجتهاد

وخلاف التنوع في أصل ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خلاف سائغ: وهو أن يراعي كلا الطرفين اجتهاد بعضهما، فلا يطغي أحد على أحد، ولا يرغم أحد أحدا باجتهاده. وهذا الاجتهاد يوسع نطاق المعرفة بين الناس ويثري الحياة العلمية، وخاصة وأن معظم مسائل الفقه اجتهادية. أضف إلى أن كثير من المسائل العلمية في حيز الاجتهاد مثل رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج ومثل المرور على الصراط يوم القيامة أو الدخول في النار، مثل وزن الأعمال فقط أو الأعمال وصاحبها، غيرها من المسائل.

القسم الثاني: خلاف غير سائغ: وهو أن تكون المسألة في حيز الاجتهاد فلا يراعي الطرفان أو أحدهما اجتهاد الآخر ويوالي ويعادي على اجتهاده ويبدع ويفسق المخالف.

المبحث الثالث

التعامل

أولا: التعريف اللغوي:

التعامل من المعاملة[١]، من عَمِلْتُهُ

جاء في المصباح المنير:

عَمِلْتُهُ: (أَعْمَلُهُ) (عَمَلا) صنعته و(عَمِلْتُ) على الصدقة سعيت في جمعها والفاعل (عَامِلٌ) والجمع (عُمَّالٌ) و(عَامِلُونَ) ويتعدى إلى ثانٍ بالهمزة فيقال (أَعْمَلْتُهُ) كذا و(اسْتَعْمَلْتُهُ) أي جعلته (عَامِلا) و(اسْتَعْمَلْتُهُ) سألته أن (يَعْمَلَ) و(اسْتَعْمَلْتُ) الثوب ونحوه أي (أَعْمَلْتُهُ) فيما يعدّ له و(عَامَلْتُهُ) في كلام أهل الأمصار يراد به التصرف من البيع ونحوه.

وقال الصغاني: (المعَامَلةُ) في كلام أهل العراق هي المساقاة في لغة الحجازيين و(عَمَّلْتُهُ) على البلد بالتشديد وليته (عَمَلَهُ) و(العُمَالَةُ) بضم العين أجرة العامل. اهـ[٢]

المعاملة: بضم الميم الاولى وفتح الثانية، التعامل مع الغير.[٣]

ثانيا: المعاملة في اصطلاح العلماء

المعَاملة: عند العامة: يراد بها التصرفُ من البيع ونحوه.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (٣٠/ ٦٢)

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٤٣٠)

(٣)معجم لغة الفقهاء (ص: ٤٣٨)

وعند الصوفية: ما يُقرَّب إليه تعالى وما يبعَّد منه من الأعمال.

وعند الفقهاء: تطلق على مجموع الأحكام الشرعية المتعلِّقة بأمر الدنيا باعتبار بقاء الشخص كالبيع والشراء والإجارة وغيرها.[١]

والإنصاف في المعاملة: العدل بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله[٢]

علم الْمُعَامَلَة: هُوَ علم أَحْوَال الْقلب كالصبر وَالشُّكْر وَالْخَوْف والرجاء والرضى والزهد وَالتَّقوى والقناعة والسخاء وَحسن الْخلق والصدق وَالْإِخْلَاص وَمَا يذم كالغل والحقد والحسد والغش وَالْكبر والرياء وَالْبخل والتزين لِلْخلقِ والمداهنة والخيانة وَطول الأمل وَالْقَسْوَة وَقلة الْحَيَاء وَقلة الرَّحْمَة فَهَذِهِ وأمثالها من صِفَات الْقلب مغارس الْفَوَاحِش والأخلاق المحمودة منبع الطَّاعَات[٣]

(١) أنظر التعريفات الفقهية (ص: ٢٠٩)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٢/ ٨٥)

(٢) التعاريف (ص: ٩٩)

(٣) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لابن أبي شامة(ص: ٧٣)

الفصل الثاني

الحضارات السائدة قبل مبعث النبيﷺ وأحوال جزيرة العرب

المبحث الأول

الحضارات السائدة قبل مبعث النبيﷺ

كانت هناك حضارات قبل مبعث النبي ﷺ، ودول عظمى لها الهيمنة والسيطرة على قطاع كبير من الأرض، وكانت هذه الحضارات غارقة في الفساد والظلم، وعلى رأس هذه الحضارات أو الدول العظمى: الفرس في جهة المشرق، والروم في جهة المغرب.

وذكر هذه الحضارات لابد وأن يعقبها ما يماثلها في وقتنا المعاصر حتى نفقه الدرس ونعي العبرة. فكأن التاريخ يعاد بصورة أو بأخرى. والأحداث تتكرر ليعي الإنسان الدرس ويفقه الواقع، وتبلغه رسالة ربه حتى لا يكون له حجة يوم لا ينفع فيه الندم ولا التغابي ولا الإنكار.

المطلب الأول

الحضارة الفارسية

أصل الفرس:

أول ملوكهم كيومرث ثم تنازعوا فيه فمنهم منِ زعم أنه ابن آدم، والأكبر من ولده، ومنهم من زعم وهم الأقلون عدداً – أنه أصل النسل–، وقد ذهبت طائفة منهم إلى أن كيومرث هو أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، لأن أميماً أول من حَلَّ بفارس من ولد نوح، وكان كيومرث ينزل بفارس، والفرس لا تعرف طوفان نوحٍ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح

عليهما السلام كان لسانهم سريانياَ. ولم يكن عليهم ملك، بل بهانوا في مسكن واحد، والله أعلم بذلك.

مكانة الدولة الفارسية

وكانت من أكبر الدول التي يمتد نفوذها جنوب الجزيرة وشمالها وشرقها، وهي حضارة وثنية مجوسية تقوم على تقديس النار وعبادتها، واعتقاد أن للكون إلهين: إله الظلمة، وإله النور. "وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة كالزرادشتية والمانوية التي أسسها ماني في أوائل القرن الثالث الميلادي، ثم ظهرت المزْدكية في أوائل القرن الخامس الميلادي التي دعت إلى الإباحية في كل شيء؛ مما أدى إلى انتشار ثورات الفلاحين وتزايد النهابين للقصور، فكانوا يقبضون أو يأسرون النساء ويستولون على الأملاك والعقارات، فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم، لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكًا لهؤلاء الملوك يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة والمعابد فرارًا من الضرائب والخدمة العسكرية، وكانوا وقودًا حقيرًا في حروب طاحنة مدمرة قامت في فترات من التاريخ دامت سنين طوال بين الفرس والروم لا مصلحة للشعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك."[1]

(١) السيرة النبوية لمحمد على الصلابي (١/ ١١).

وكانت نتيجة هذه الأديان التي سيطرت على العقلية الفارسية وخاصة عبادة النار وهي "لا توحي إلي عبادها بشريعة ولا ترسل رسولا، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة والمجرمين؛ أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة. أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحرارا يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم أو ما توحي بهم مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر.

وهكذا حرمت الأمة الإسلامية في حياتها دينا عميقا جامعا يكون تربية النفس، وتهذيبا للخلق، وقامعا للشهوات، وحافزا على التقوى وفعل الخيرات، ويكون نظاما للأسرة وتدبيرا للمنزل، وسياسة للدولة ودستورا للأمة، ويحول بين الناس وطغيان الملوك، وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، وينتصف للمظلوم. وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال"[1]

ولو نظرنا في عصرنا الحالي نجد الأمر ذاته، ولا يختلف إلا في الشكل، أما المضمون فهو المضمون، فإن الحضارة الأوربية الحديثة تنقسم إلى قسمين،

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي (ص٦٣،٦٤).

القسم الأول: الناحية الدينية فهي قابعة في الكنائس والأديرة، لا شأن لها بالحياة الخارجية، ولا سياسية البلاد.

والقسم الثاني: السياسة: فالساسة لهم أن يحكموا البلاد بما شاءوا من قوانين وأفكار نابعة من محض عقولهم على حسب ما تقتضيه مصلحة البقاء في السلطة والحكم.

ولكن يختلف الأمر إذا كان التعرض لعقائد البلاد جملة، فهم عند ذلك الدين لهم شعار فقط، للقتل والسلب والنهب. وليس للأخلاق الحميدة.

والنظر أيضا إلى أهل الأوثان من أهل الشرق كالصين واليابان وغيرها من الدول التي تعبد أصناما في صورا شتى، كبوذا وزاردشت والبقر والفئران وغيرها نجد هذه العبادات تتمثل في المعابد التي شيدوها لهذا الغرض، أما سياسية البلاد فلا علاقة لها بهذا الدين أو ذاك. لأن هذه الأديان ليست لديها شريعة تحلل حراما أو تحلل حلالا أو ترعى مصلحة أو تدرء مفسدة. وإنما هي مجموعة من الطقوس والأخلاق.

والمسلمون في هذه البلاد يلاقون من التعنت والقهر والانعزالية والنبذ أشبه ما كان يلاقيه المسلمين في العهد المكي.

المطلب الثاني

الحضارة الرومانية

أصل الرومان:

ذكرت كتب التاريخ الإسلامية أن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام أنجب توأم وهما يعقوب عليه السلام وعيص، فأما العيص فَإِنَّهُ تزوج بنت عمه إِسْمَاعِيل، وولدت لَهُ الروم، وكل بَنِي الأصفر من ولده. وإنما سمي ولد ولده الأصفر لأنه كَانَ فِيهِ أدمة. وكثر أولاده حَتَّى غلبوا الكنعانيين بالشام، وصاروا إِلَى البحر والسواحل وناحية الإسكندرية، وصار الملوك من ولده، وَهُمُ اليونانية.(١)

وذكر ابن الوردي ملوك الروم فقال :

أَوَّلهمْ روملس ورومانارس فَبنى رُومِية ثمَّ قتل روملس أَخَاهُ رومانا وَملك بعده ثمانيا وَثَلَاثِينَ سنة وَحده وَاتخذ برومية ملعبا عجيبا ثمَّ ملك بعده مُلُوك لم يشتهروا، وَمن الْكَامِل: كَانَ مقرّ ملكهم رُومِية الْكُبْرَى قبل غلبتهم على اليونان وَكَانَ الرّوم يدينون بالصابئية وَلَهُم أصنام على أَسمَاء الْكَوَاكِب السَّبْعَة يعبدونها وَأول من اشْتهر من مُلُوكهمْ غاليوس ثمَّ ملك بعده يوليوس، ثمَّ أغشطش وشيناه معجمتان وعرب فصارتا سينين لقبه قَيْصر مَعْنَاهُ شقّ عَنهُ

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١/ ٣٠٧) وأنظر مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط بن الجوزي (١/ ٤٣٣)، تاريخ الطبري (١/ ١٩٠)

مَاتَت أمه فشق بَطنهَا وَأخرج ولقب بِهِ مُلُوك الرّوم بعده، وَخرج أغسطس فِي السّنة الثَّانِيَة عشر من ملكه من رُومِية بعساكر فِي الْبر وَالْبَحْر وَسَار إِلَى مصر وَاسْتولى على ملك اليونان وَكَانَت قلوابطرا هِيَ الملكة فِي اليونان ومقامها الْإِسْكَنْدَرِيَّة فاضمحل بأغسطس ذكر اليونان ودخلوا فِي الرّوم وأطاعه بَنو إِسْرَائِيل كَمَا كَانُوا أطاعوا البطالسة فولى على يهود بَيت الْمُقَدّس واليا مِنْهُم يلقب هردوس كَمَا مر وَغَلَبَة أغسطس على مصر وَقتل قلوبطرا لمضي مِائَتَيْنِ واثنتين وَثَمَانِينَ سنة لغَلَبَة الْإِسْكَنْدَر، وَمُدَّة ملك أغسطس ثَلَاث وَأَرْبَعُونَ سنة مِنْهَا اثْنَتَا عشرَة سنة قبل غلبته على اليونان وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ سنة من غلبته إِلَى وَفَاته وَمَوْت أغسطس لمضي ثلثمِائة وَثَلَاث عشرَة سنة لغَلَبَة الْإِسْكَنْدَر.

ثمَّ ملك بعد أغسطس " طيباريوس " فِي أول سنة ثلثمِائة وَأَرْبع عشرَة للإسكندر اثْنَتَيْنِ وَعشْرين سنة وَبنى طبرية بِالشَّام – مُشْتَقَّة من اسْمه – وَمَات لمضي ثلثمِائة وَخمْس وَثَلَاثِينَ للإسكندر.

ثمَّ " غانيوس " أَربع سِنِين ولمضي السّنة الأولى من ملكه رفع الْمَسِيح عَلَيْهِ السَّلَام فَيكون رَفعه لمضي سنة سِتّ وَثَلَاثِينَ وثلثمائة للإسكندر، وَمَات غانيوس لمضي سنة تسع وَثَلَاثِينَ وثلثمائة للإسكندر.اهـ [1]

(١) تاريخ ابن الوردي (١/ ٥١)

وشهرة الدولة الرومانية كانت بعد نشأة الدولة البيزنطية في عهد قسطنطين أول ملوك بيزنطا، وسميت بهذا الاسم لأن قسطنطين بنى دولته القسطنطينية على أنقاض مدينة قديمة تدعى "بيزنطة" أسسها "بيزاس" قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد(١)

مكانة الدولة الرومانية وأفعالها :

وكانت هذه الدولة تفرض هيمنتها على منطقة حوض البحر المتوسط بأسره من ناحية أوربا وأسيا وأفريقيا، وقد اختلطت فيها الوثنية بالمسيحية وصارت دينا لهم من لم يكن عليه فهو عبد مستباح الدم والعرض والمال، " وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية، وكانت بلاد العرب في حاجة إلى الحبوب، وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب في شرطتها، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين؛ وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا الأمرَّين من جراء اضطهاد بيزنطية؛ ولهذا رحب بقدوم المسلمين، وأعانوهم على استيلاء منفيس، وأرشدوهم إلى الإسكندرية" (٢) ومن أجل ذلك فرح أهل مصر بقدوم المسلمين إليهم.

و"كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية

(١) انظر الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها للدكتور محمد سعيد عمران(ص:١٣)

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت (ص ٤٢٩٢، ٤٢٩٣).

العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء – في جانب آخر– حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة»[(١)]

وطالت "حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسي وبالجمود في كل مناحي الحياة العامة، وبمؤامرات الحاشية، ودسائس الخصيان، وحروب الوراثة، وبعشرات الثورات التي شبت نارها في القصر، والتي رفعت إلى العرش أباطرة كفاة في بعض الأحيان، ولكنها قلما رفعت إليه أباطرة ذوي استقامة خلقية؛ وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم، أو من العصابات الأجركية، أو من الحمقى البلهاء."[(٢)]

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص٣١).

(٢) وول ديورانت: قصة الحضارة (ص ٤١٣١).

وكان حال مصر في الدولة الرومانية كما قال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب ص ٣٣٦): ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية. ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مصرحا للخلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعبون بفعل تلك الخلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم. وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين.(١)

وامتد نفوذ هذه الدولة إلى أرض الحبشة فكانت جميعها على النصرانية، إلا أن هناك اختلافا مذهبيا في قضية الانتماء. ولأجل ذلك كان ملك الحبشة يحكم بالعدل في حدود ما يرى.

وعند النظر إلى أحوال الأمة الآن نرى أن الأمر لا يختلف كثيرا، فدولة مثل أمريكا تفرض هيمنتها ونفوذها على أكثر الدول، وخاصة الدول الإسلامية، من خلال قوتها العسكرية وضعف الثقة بالله عند أكثر المسلمين، وضعف التخطيط السليم لمجابهة هذا العدو الذي فتت شأن الأمة واستباح بيضتها، وظهر أمام الناس بمظهر المنقذ. وكل ذلك بمعاونة الغرب النصراني أيضا، فعدوهم واحد وهو الإسلام، وهدفهم واحد وهو مقدرات بلاد الإسلام.

(١) عن كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي (ص ٤٨).

ولم يقتصر الأمر على الحرب العسكرية فقط، بل الحرب الفكرية هي الأساس التي يسعى إليها، فتغيير مناهج التعليم في شتى البلاد الإسلامية بما يوافق المستعمر الجديد شيء صار ذا أهمية، وتم تنفيذه بنجاح، رغم أنه استغرق منه الوقت سنوات والجهد أعمار وأموال.

ووصل الأمر إلى ضرب الصحوة الإسلامية من الداخل، ويحارب الدين بالدين، في البداية كان عملاؤه ظاهرون بادون للناس، لكنه نجح في خلق عملاء له دون أن يدروا هم أنهم عملاء، ينفذون ما خطط له. بل يتكلمون باسم الدين ويدافعون عن الدين، وربما نياتهم تكون صادقة، وهم أبعد عن العمالة، لكنهم مساكين. ولا يدرون أن هذا ما يريده عدوهم. ولقد وقعت أحداث وأحداث في هذا الزمن، اليد مسلمة؛ لكن الفكرة نبعت من رؤوسهم هم، لتنفيذ مخططاتهم، فهم كوحوش صغيرة في الغابة لم يقدروا على الأسد، فخططوا لإدانته بين صغار الوحوش حتى تجتمع عليه فتطيح به، ولكن ما لم يحسبوا له، هو أن الله ناصر دينه وعباده المؤمنين كما وعد سبحانه ولا يخلف الله وعده.

المبحث الثاني

أحوال العرب قبل البعثة

المطلب الأول

موقع العرب

كلمة العرب: تنبئ عن الصحارى والقِفَار، والأرض المجْدِبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أطلق على قوم قَطَنُوا تلك الأرض واتخذوها موطنا لهم.

وجزيرة العرب يحدها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربي وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فإنها في وضعها الداخلي محاطة بالصحاري والرمال من كل جانب؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لم يستطع الأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا في جميع الشئون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم، وتلتقي به برًا وبحرًا، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنوبها والشرق البعيد، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها موئلا للأمم، ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.[1]

(١) الرحيق المختوم (ص ١٠).

المطلب الثاني
الملك في العرب

أولا: الملك في اليمن

وما يعنينا هنا هو الملك بعد ميلاد المسيح عليه السلام، فقد قامت دولتان في أرض اليمن:

الأولى: الدولة الحميرية الأولى: وهي ما بين سنة ١١٥ قبل الميلاد إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد، وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة حمير. " لأن قبيلة حمير غلبت واستقلت بمملكة سبأ، وقد عرف ملوكها بملوك سبأ وذي ريدان، وهؤلاء الملوك اتخذوا مدينة ريدان عاصمة لهم بدل مدينة مأرب، وتعرف ريدان باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من يريم. وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط الأنباط سيطرتهم على شمال الحجاز أولا، ثم لغلبة الرومان على طريق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالي الحجاز ثانيًا، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثًا. وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة"[1]

(١) الرحيق المختوم (ص١٨).

الدولة الثانية: الدولة الحميرية الثانية

"وعرف ملوكها بملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت، وقد توالت على هذه الدولة الاضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات والحروب الأهلية التي جعلتها عرضة للأجانب حتى قضى على استقلالها. ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م؛ مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠م، أو ٤٥١ م.وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب."[1]

وكان قد ملكها يهودي يسمى ذي نواس، قد صرف الناس إلى عبادته وترك دينهم الذي هم عليه من المسيحية حتى هرب الرهبان في الجبال، وعندما قام الغلام الصغير . الذي أرسله الملك للساحر لتعلم السحر عرف طريق أحد الرهبان الموحدين فاعتنق دينه . بدعوة الناس للحق وحاول الملك استمالته إليه بشتى الطرق لكنه باء بالفشل، فحاول قتله لكنه أيضا لم يفلح إلا بعد أن جمع الناس في مكان واحد وأمسك بقوسه وقال كما أمره الغلام: بسم الله رب الغلام، فقتله، فدخل الناس في دين التوحيد ووقعت حادثة الأخدود في

(١) المصدر السابق (ص ١٨).

سنة ٥٢٣م التي أحرق فيها الملك عددا كبيرا من الناس وهرب أحدهم ليستنجد بالرومان، فأرسل القيصر إلى ملك الحبشة ليغيث القوم من ظلم هذا الطاغية، وعلى الفور أرسل ملك الحبشة جيشا كبيرا إلى اليمن على رأسه أرياط الحبشي. فاحتل الجيش اليمن و" انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره."[١]

وبعد فترة وجيزة قام أبرهة بن الصباح الحبشي باغتيال أرياط وتربع على ملك اليمن، " فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن غضب غضبا شديدا على أبرهة، وقال: عدا على أميرى فقتله بغير أمرى! ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته.

فحلق أبرهة رأسه، وملا جرابا من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي... فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه: أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري "[٢] وظل أبرهة على اليمن ثم شرع في بناء كنيسة كبيرة، ودعا الناس إلى التوجه إليها، ليصرف العرب عن بيت الله الحرام، فقام أعرابي وتغوط فيها ولطخ جدرانها استهزاء بها، غضب أبرهة من ذلك غضبا شديدا

(١) السيرة لابن كثير (١/٢٨).

(٢) المصدر السابق (١/٢٩).

وجهز جيشه وتوجه إلى بيت الله الحرام لهدمه وكانت واقعة الفيل كما سيأتي بيانها.

وبعدها استرجع ملك اليمن سيف بن زي يزن الحميري، وبعدها كانت للفرس وكان عاملها ذاذان.

ثانيا: الملك بالحيرة

كان أول ملوك العرب بالحيرة هو مالك بن غنم بن دوس الأزدي وكان ممن خرج من سبأ مع مزيقيا عمرو بن عامر في زمن أردشير الجامع أو بعده بقليل [(١)]

وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف قبل الأكاسرة ثم ملك بعده أخوه عمرو بن فهم.

ثم ملك بعده ابن أخيه جذيمة بن مالك بن فهم، وكان به برص فكنوا عنه وقالوا جذيمة الأبرش". وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر مَنْ ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلًا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقى عند

(١) أنظر في ذلك كتاب "البدء والتاريخ (ص١٨٤)، وكتاب "مروج الذهب للمسعودي (٢٠٥/١)، وكتاب " المختصر من تاريخ البشر (٤٣/١).

ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدى بن نصر اللخمي [٢٦٨- ٢٨٨م] وهو أول ملوك اللخميين، وأول من اتخذ الحيرة مقرًا له، وكان في عهد كسرى سابور بن أردشير، ثم لم يزل الملوك من اللخميين من بعده يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قُبَاذ بن فيروز [٤٤٨- ٥٣١م] وفي عهده ظهر مَزْدَك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة . وهو المنذر بن ماء السماء [٥١٢. ٥٥٤ م] . يدعوه إلى اختيار هذا المذهب الخبيث، فأبي عليه ذلك حمية وأنفة، فعزله قباذ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي. وخلف قباذ كسرى أنوشروان [٥٣١- ٥٧٨م] وكان يكره هذا المذهب جدًا، فقتل المزدك وكثيرًا ممن دان بمذهبه، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو، لكنه أفلت إلى دار كلب، فلم يزل فيهم حتى مات. واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه حتى كان النعمان بن المنذر [٥٨٣-٦٠٥م] فإنه غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادي، فأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان، وأودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى، فحبسه كسرى حتى مات. وولى على الحيرة بدله

إياس بن قَبِيصة الطائي، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده، فأبي ذلك هانئ حمية، وآذن الملك بالحرب، ولم يلبث أن جاءته مرازبة كسرى وكتائبه في موكب إياس، ودارت بين الفريقين معركة هائلة عند ذي قار، انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة نكراء. وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ.

واختلف المؤرخون في تحديد زمن هذه المعركة، فقيل: هو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل، وأنه ﷺ ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة. وقيل: قبل النبوة بقليل ـ وهو الأقرب. وقيل: بعد النبوة بقليل. وقيل: بعد الهجرة. وقيل: بعد بدر. وقيل غير ذلك.

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكمًا فارسيًا اسمه آزادبه بن ماهبيان بن مهرابنداد، وظل يحكم ١٧ عاما [٦١٤ـ ٦٣١م] ثم عاد الملك إلى آل لخم سنة ٦٣٢م، فتولى منهم المنذر بن النعمان الملقب بالمعرور، ولكن لم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين"[1]

واشتهر هؤلاء الملوك بملوك الطوائف نظرا لتفرقهم إلى طوائف في أماكن شتى وكل طائفة عليها ملك. لكن كان من أقواهم ملوك الحيرة. لذا خصصناهم بالذكر

(١) الرحيق المختوم (ص ٢٥)

ثالثا: الملك في أرض الجزيرة

ولم يكن في أرض الجزيرة ملكا كملك حمير والحيرة؛ وإنما كانت إمارات، وقبائل متناحرة؛ القوى يأكل الضعيف.

فقد كان أول أمير بمكة هو إسماعيل عليه السلام وتولى بنوه الأمر من بعده، حتى صار إلى قبيلة جرهم فترة من الزمن إلى عهد عدنان، وكان عدنان صالحا على دين التوحيد.

ثم بعد ذلك سيطرت قبيلة خزاعة على الأمور وكان عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من أتى بالأصنام إلى جزيرة العرب وسيب السوائب وبحر البحيرة.

فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: الْبَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ».(١)

وفي "زوائد مسند الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَعَبَدَ الأَصْنَامَ أَبُو خُزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ».(٢)

---

(١) البخاري(٣٢٦٠)

(٢) مسند أحمد (٤٠٣٨) وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤ / ٢٤٢)

وانتشرت بعدها عبادة الأصنام وتفرق القبائل والطوائف على حسب معبوداتهم. وفقد الأمان ولم يعد أحد يأمن على نفسه من الرق أو القتل إذا هو سار بمفرده. حتى صارت جزيرة العرب ليست ذات أهمية عند الفرس والرومان لانعدام الخير فيها. "واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحوا من ثلاثمائة سنة، وقيل خمسمائة سنة والله أعلم."(١)

" واستولى قصي على أمر مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م، وبذلك صارت لقصي ثم لقريش السيادة التامة والأمر النافذ في مكة، وصار قصي هو الرئيس الديني لهذا البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعًا بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقر النسأة وآل صفوان وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه دينًا في نفسه لا ينبغي تغييره.

ومن مآثر قصي: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصيل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى.

---

(١) السيرة لابن كثير (٦١/١)

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف:

١ـ رياسة دار الندوة [(١)]: ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، وفيها كانوا يزوجون بناتهم.

٢ . اللواء: فكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده، وفي هذه الدار.

٣ . القيادة: وهي إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة في تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

٤ . الحجابة: وهي حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدنتها.

٥ . سقاية الحاج: وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضًا من الماء، يحلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

٦ . رفادة الحاج: وهي طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة، وكان قصي فرض على قريش خرجًا تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي، فيصنع به طعامًا للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد."[(٢)]

---

(١) " دار الندوة دار ملأ مكة، ومجلس سادتها ووجوهها وأشرافها وأولي الأمر فيها، فلم تكن بمكة حكومة مهيمنة على الناس وإنما الأمر للملأ والأشراف فيها من شتى بطون قريش " من كتاب: مدخل لفهم السيرة ليحيي إبراهيم اليحيي (ص٢٧)

(٢) الرحيق المختوم (ص ٢٤)

المطلب الثالث

الحالة الاجتماعية والدينية في الجزيرة

أولا: الحالة الاجتماعية

كما ذكرنا سابقا أن عبادة الأصنام انتشرت في شبه الجزيرة العربية، ولم يجتمعوا على صنم واحد، وإنما عبدوا أصناما شتى بأسماء مختلفة، مثل هبل، ومناة، والعزى، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وغيرها من الأسماء. ولذلك لما أنكروا على النبي ﷺ عندما دعاهم إلى توحيد الله تعالى قالوا مستنكرين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[صّ:٥]

أما الحالة الاجتماعية فقد وصلت إلى أقصى درجة من الانحطاط والظلم، فكانوا يعيرون من إنجاب البنات، وقبل أن ينتشر الخبر يعمد الأب إلى دفنها حية بعد ولادتها، ولم يكن هذا في أكثرهم، بل بعض القبائل منهم، وكان بعضهم يقتلون أولاده خشية الفقر، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(٩)﴾[التكوير: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٩)﴾[النحل:٥٨، ٥٩]

وقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾[الإسراء:٣١]

أما حال المرأة فكانت في الغالب لا قيمة لها حيث كانت تورث مع الميراث وينكح الابن زوجة أبيه بعد موته وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[النساء:٢٢]

وكانت تعتبر المرأة شر كلها، وهكذا الحضارات الأخرى الفارسية والرومانية والهندية في ذلك الوقت لا تقل وضعا عما كان عليه العرب في الجاهلية. غير أن القليل من العرب من كان ينصف المرأة ويعطيها بعض من حقوقها. وخاصة إذا كانت ذات سطوة ومال فهذه لا يقترب منها أحد.

روى البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ:

أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ: مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِلِي إِلَى فُلانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلانُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ [(١)].

وعلى هذا انتشر الزنا والرذيلة بين الناس، وعمت الفوضى.

ثانيا: الحالة الاقتصادية: فكان اعتمادهم الأول على التجارة في الشام واليمن فيما يسمى برحلة الشتاء والصيف وقد أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤)﴾[سورة قريش]

وكان الفقر منتشر بينهم مما أدى بهم إلى قطع الطريق والغارة على القبائل

(١) البخاري (٤٧٣٢)

الضعيفة

ثالثا: الحالة الأخلاقية:

فقد كان العرب فوق كل ما وصفنا يمتازون ببعض الصفات الأخلاقية الحميدة منها:

١ ـ " الكرم: وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات." [(١)]

وكان من أشهر كرماء العرب حاتم الطائي الذي كان مضرب المثل، وأيضا في مكة عبد الله بن جدعان، وقد صنع قصعة كبيرة يأكل منها الراكب فرسه جاء في صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[(٢)].

---

(١) الرحيق المختوم (ص٣٩)

(٢) مسلم(٣١٥)

٢ ـ "الوفاء بالعهد: فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به، ويستهينون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفي في معرفة ذلك قصة هانئ بن مسعود الشيباني، والسَّمَوْأل بن عاديا، وحاجب بن زرارة التميمي.

٣ ـ عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضيم: وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

٤ ـ المضي في العزائم: فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.

٥ـ الحلم، والأناة، والتؤدة: كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

٦ـ السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها: وكان من نتائجها الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر." [١]

٧ـ "كانوا أصحاب شجاعة، ومغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة وكانت الفروسية من أبرز أخلاقهم.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩)

حتى كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً، ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف.

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظُباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

وحيث كان العرب لا يقدمون شيئاً على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، استرخصوا في سبيل ذلك نفوسهم"[١]

٨ ـ كانوا بمعزل عن الأدواء المدنية والترف الذي يحول دون التحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها، فكانوا يقلون من الأكل ويقولون البطنة تذهب الفطنة ويعيبون الرجل الأكول الجشع:

إذا مدت الأيد إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل[٢]

(١) مدخل لفهم السيرة (ص٢٤)

(٢) بلوغ الأرب (٣٧٧/١).

المطلب الرابع

ما هو الهدف من ذكر ما تقدم ؟

وقد يسأل سائل: إذا كان الهدف من هذا البحث هو إبراز حياة النبي محمد ﷺ كما جاءت في كتب السنة والسير؛ فلماذا تذكر هذه الأحداث وهي قبل مولده ؟

والجواب عن ذلك:

١. الهدف من ذكر هذه الأحداث لبيان اختلاف الأحوال ما بين قبل مبعث النبي ﷺ وما بعده. وهل يوجد في الواقع الذي نعيشه حالات مثل ما كان موجودا في عصر النبي ﷺ؟

٢ . تبيين عظمة الإسلام وكيف كان هو النور الذي أنقذ البشرية من التردي في الهاوية وارتفع بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية. وكيف حرص الإسلام على حل كل مشكلات المجتمع بإزالة الفوارق العرقية والطبقية بينهم وكيف ألف بين قلوب الناس، وقرب بين وجهات نظر المختلفين.

٣ـ لتوضيح كيف استطاع هذا الرجل الأمي أن ينقل العالم هذه النقلة العظيمة، ولا يفعل ذلك إلا نبي. أن يكون العبد والحر سواء أمام شرع الله. ولا تفريق بين الناس بجنس ولا لون ولا طبقة ولا عرق.

٤ـ لبيان عظمة النبي ﷺ في تكوين أعظم دولة في التاريخ في خلال ثلاثة وعشرين سنة فقط، بدأ فيها طريدا منبوذا من قومه لمدة ثلاث عشرة عاما، أي أكثر من نصف البعثة. وكيف الطريق لنا لإعادة هذه الدولة إلى كيانها الأول. وأنه لا يتم إلا من خلال اقتفاء أثر النبيﷺ في حياته والسير على هداه.

٥ . توضيح البيئة التي نشأ فيها محمد ﷺ وأنه من أشراف الناس وليس من سفلتهم كما يكذب الكذابون. بل هو من خير بيوت العرب على الإطلاق.

المطلب الخامس

بماذا سميت هذه المرحلة بعد ظهور الإسلام؟

بعد أن منَّ الله تبارك وتعالى على الكون ببعثة رسوله محمدﷺ كان تسمى مرحلة ما قبل البعثة بالجاهلية. لما فيها من مخالفة الحق والفطرة والتعامل بطريقة العصبية واتباع الآباء والأجداد. وقد ذكر الله تعالى في القرآن بعض هذه المظاهر فقال تعالى للنساء: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[الأحزاب: ٣٣]

وقال تعالى:﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[آل عمران:١٥٤]

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا

وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[الفتح:٢٦]

وقد جاءت في السنة أحاديث كثيرة مثل ذلك منها:

١. ما رواه البخاري في صحيحه عَنْ عُرْوَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ»(١).

٢ـ وأخرج أيضا عن ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ ذُو الْمَجَازِ وَعُكَاظٌ مَتْجَرَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ كَأَنَّهُمْ كَرِهُوا ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ(٢)

٣ . وروى أيضا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْفِ نَذْرَكَ فَاعْتَكَفَ لَيْلَةً»(٣).

" فإن الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة ولكن غلب عليها الاستعمال حتى صارت اسماً ومعناها قريب من معنى المصدر، وقد تكون الجاهلية اسماً

(١) البخاري (١٣٤٦)

(٢) البخاري(١٦٤٨)

(٣) البخاري(١٩٠١)

لذي الحال فتقول: طائفة جاهلية، وشاعر جاهلي، نسبة إلى الجهل وهو عدم العلم أو عدم اتباع العلم.

فإن من لم يعلم الحق جاهل جهلاً بسيطاً، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضاً كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[الفرقان:٦٣]، وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾[النساء:١٧] قال الصحابة: «كل من عمل سوءاً فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق».[١]

(١) كتاب: مدخل لفهم السيرة للدكتور يحيى بن إبراهيم اليحيى (ص١٣)

المبحث الثالث

أهم الأحداث التاريخية قبل مولد النبي ﷺ

أولا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بن وهب.

قد ذكرنا فيما سبق قصة زواج عبد الله لآمنة بنت وهب. ولكن بعد أن حملت آمنة بخير البشر ﷺ قدر الله تعالى لنبيه أن لا يرى أباه " فأبوه عبد الله لما تزوج آمنة وحملت به على أظهر أقوال العلماء أن أباه مات وهو حملٌ عليه الصلاة والسلام، كان له أخوالٌ من بني النجار في المدينة –مدينة النبي ﷺ– فذهب عبد الله هذا لتجارة لأبيه فمات هناك في المدينة، ودُفن في دار النابغة أي في دار النابغة الجعدي أحد شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه.(١)

وفي هذه فوائد منها:

١ ـ ألا يقول اليتيم: أنه لولا يتمه ما كان هذا حاله، فله في رسول الله أسوة حسنة.

٢ ـ أن من رأى أباه وتربى على يديه فهو في نعمة تحتاج إلى شكر ربه.

٣ـ أن اليتيم ينال العطف دائما من الناس حبا في رسول الله ﷺ، ولذلك حض الرسول ﷺعلى كفالة اليتيم وإطعامه كما جاء في صحيح مسلم عَنْ

(١) السيرة العطرة للشيخ صالح بن عواد المغامسي (ص ١٣)

أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» . وَأَشَارَ مَالِكٌ[١] . بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[٢].

ثانيا: حادثة الفيل

قبل مولد النبي ﷺ وقعت أحداث عظام من أهمها حدث الفيل وأصحابه، هذا الحدث كان في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ. وقد كان له أثر عظيم في نفوس الناس لما شاهدوا انتقام الله تعالى لبيته الحرام، وكيف أهلك هؤلاء القوم. وقد أخبر الله تعالى نبيه عنها وأنزل سورة باسم الفيل فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٣) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٤)﴾[سورة الفيل] [٣]

(١) وهو مالك بن أنس أحد رواة الحديث

(٢) مسلم (٥٢٩٦)

(٣) وقد فصلنا الكلام في هذه الواقعة في كتابنا" محمد نبي الإسلام"

الفصل الثاني

حياة النبيﷺ في مكة

وفي هذا الفصل لن نسرد الأحداث بتفصيل ودقة وترتيب، وإنما نختار منها ما يهم بحثنا، ليكون نبراسا لنا في حياتنا المعاصرة، وتسهل المقارنة. وقد أوردنا ذلك بشيء من التفصيل في كتابنا "محمد ﷺ نبي الإسلام الرحمة المهداة للعالمين".

أولا: ولادته ﷺ

ولد النبي ﷺ بعد واقعة الفيل الشهيرة بخمسين يوما " صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة (٥٧١) من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بِشِعْب بني هاشم، وكانت قابلته الشَّفَّاء أم عبد الرحمن بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشِّره، فأقبل مسروراً وسمّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبلُ عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جدَّه أن يسمّيه بذلك إنفاذاً لأمره، وكانت حاضِنته أم أيمن بركة الحبشية، أَمَة أبيه عبدِ اللَّهِ، وأول مَنْ أرضعه ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عمه أبي لهب.[1]

"ولحكم أرادها الله أن يموت الأبوان قبل أن ينشأ ﷺ النشأة التي يمكن أن نقول إنها بلغت سن التمييز، فأبوه عبد الله لما تزوج آمنة وحملت به على أظهر أقوال العلماء أن أباه مات وهو حملٌ عليه الصلاة والسلام، كان له أخوالٌ من بني النجار في المدينة —مدينة النبي ﷺ– فذهب عبد الله هذا لتجارة لأبيه فمات هناك في المدينة، ودُفن في دار النابغة أي في دار النابغة الجعدي أحد شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه. "[2]

---

(١) نور اليقين من سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري (ص١٢).

(٢) الأيام النظرة والسيرة العطرة: صالح بن عواد المغامسي (ص٨)

ثانيا: نسبه ﷺ

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي عَمَّارٍ شَدَّادٍ أَنَّهُ سَمِعَ وَاثِلَةَ بْنَ الأَسْقَعِ يَقُولا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(١) (٢).

قال البخاري في "كتاب المناقب" من صحيحه:

بَاب مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.

ثالثا: رضاعته

"وبعد ولادته أرضعته ﷺ من النساء ثمان وقيل أكثر، أولاهن أمه آمنة ثم ثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب التي أعتقها حين بشرته بولادته أياماً قبل قدوم حليمة، وخولة بنت المنذر وأم أيمن، وامرأة سعدية غير حليمة، وثلاث نسوة من العواتك"(٣) ثم سلم النبي ﷺلحليمة السعدية من بني سعد لإرضاعه

---

(١) مسلم (٢٢٧٦)

(٢) والحديث أخرجه الترمذي في سننه (٣٦٠٥) والإمام أحمد في مسنده(١٧٠٢٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٣١٧٣)

(٣) سيدنا محمد للشيخ رشيد رضا (ص١٧) عن ملف (ورد)

على عادة العرب، ذهبت به إلى قومها وقد ظهرت بركة النبي ﷺ على بني سعد عامة وعلى بيت حليمة خاصة.

روى البخاري في صحيحه عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ! اللَّهِ انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ

فَقَالَ: «أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكِ؟!»

فَقُلْتُ: نَعَمْ لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ ذَلِكِ لا يَحِلُّ لِي»

قُلْتُ: فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ

قَالَ: «بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ!»

قُلْتُ: نَعَمْ

فَقَالَ: «لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنَّهَا لابْنَةُ أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلا أَخَوَاتِكُنَّ»

قَالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلاةٌ لأَبِي لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ

قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ ؟

قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ [1].

---

(١) البخاري(٥١٠١)

. احتضنته أم أيمن بعد ولادته حتى كبر، "قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَكَانَ مِنْ شَأْنِ أُمِّ أَيْمَنَ أُمِّ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهَا كَانَتْ وَصِيفَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ مِنْ الْحَبَشَةِ، فَلَمَّا وَلَدَتْ آمِنَةُ رَسُولَ اللَّهِﷺ بَعْدَ مَا تُوُفِّيَ أَبُوهُ، فَكَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْضُنُهُ حَتَّى كَبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْتَقَهَا، ثُمَّ أَنْكَحَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ بَعْدَ مَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ"[1]

رابعا: حادثة شق الصدر

وقعت حادثة شق صدر النبي ﷺ وهو غلام صغير يلعب مع الغلمان في بني سعد، وكان سنه أربع سنين وهي من إرهاصات النبوة

جاء في مسند أحمد عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَجُلا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: كَانَتْ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ لَنَا، وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا، فَقُلْتُ: يَا أَخِي اذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمِّنَا، فَانْطَلَقَ أَخِي، وَمَكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَقْبَلَ طَيْرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَقْبَلا يَبْتَدِرَانِي، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي إِلَى الْقَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءٍ ثَلْجٍ، فَغَسَلا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءٍ بَرَدٍ فَغَسَلا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَارَّهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا

(١) صحيح مسلم (١٧٧١)

لِصَاحِبِهِ: حِصْهُ، فَحَاصَهُ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَى الأَلْفِ فَوْقِي أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقَا وَتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ فَرَقًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى أُمِّي، فَأَخْبَرْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُهُ، فَأَشْفَقَتْ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ أُلْبِسَ بِي قَالَتْ: أُعِيذُكَ بِاللَّهِ فَرَحَلَتْ بَعِيرًا لَهَا، فَحَمَلَتْنِي عَلَى الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي حَتَّى بَلَغْنَا إِلَى أُمِّي، فَقَالَتْ: أَوَأَدَّيْتُ أَمَانَتِي وَذِمَّتِي، وَحَدَّثْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَلَمْ يَرُعْهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ [1]

خامسا: رجوعه إلى أمه ووفاة آمنة وكفالة جده عبد المطلب ومن بعده أبو طالب

وبعد هذه الواقعة خافت حليمة السعدية من حدوث مكروه للغلام، فقررت إرساله إلى أمه

قال ابن حبيب:

لما بلغ عمره ست سنين، وقرت به أعين أهله الفائزين، خرجت به أمه إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني النجار، ومعهما أم أيمن حاضنة الرسول المختار،

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٩٠) الدارمي (١٣) والطبراني في مسند الشاميين (١١٥٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٣٥٤) والحاكم في مستدركه (٤١٩٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٣٠) من حديث بقية بن الوليد عَنْ بَحِيرٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ. وصححه الحاكم ووفقه الألباني في صحيح السيرة (ص٨)

فأقاموا شهرا ثم خرجوا راجعين إلى الحرم فلما كانوا بالأبواء ماتت أم سيد الأمم فدخلت به أم أيمن إلى مكة وضمه جده إليه وكان يعلى منزلته ويرق عليه ويقول إن لولدي هذا شأنا وقد كان ما قال وفوق ما تمنى ولم يزل يكفله إلى أن بلغ ثمان سنين وقيل تسعا وقيل عشرا وقيل غير ذلك[١]

"ولما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنوات توفي جده عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٨ م بعد عام الفيل بثماني سنين وله عشر ومائة سنة، وقيل أكثر من ذلك، وكان رسول الله يبكي خلف سريره ودُفن بالحجون، جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها عند قبر جده قصيّ، ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه «أبي طالب» واسمه عبد مناف وعبد الكعبة وكان كريماً لكنه كان فقيراً كثير الأولاد، وكان يرى منه ﷺ الخير والبركة ويحبه حباً شديداً ولذا لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج به متى خرج، وأوصى عبد المطلب إلى أبي طالب أيضاً بسقاية زمزم وإلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة"[٢]

وكانت هذه المرحلة انتقال من حال إلى حال، فبعد أن كان يركن إلى ركن ينفث فيه غضبه، ويشكو همه، ويتحمل منه ما لا يتحمله غيره، وهي أمه، فجأة سقط هذا الجانب، صوار النبي أشبه بالوحيد. وهي مرحلة تمر على كثير من الناس في صغرهم ممن ابتلوا بفقد والديهم ودخل في كفالة أحد

(١) المقتفى من سيرة المصطفى لعمر ابن حبيب (ص٣٩)، وانظر في ذلك عيون الأثر لابن سيد الناس (٥١/١)

(٢) سيدنا محمد (ص٢٣) وانظر نور اليقين (ص١٥)

أقربائه، ويوجد كثير من العلماء من عاش نفس الحياة، ومع ذلك بلغ من العلم مبلغه، ولم تؤثر عليه مثل تلك الحالة في مواصلة الطريق الصحيح.

سادسا: رحلة النبي ﷺ مع عمه إلى الشام

لما بلغ النبيُّ ﷺ اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام وقيل تسعَ سنين خرج مع عمّه أبي طالب إلى الشام حتى بلغ بُصْرى فرآه بَحيري الرَّاهبُ فعرفه بصفتِه فجاءَ وأخذَ بيده وقال هذا سيّد العالمين هذا رسول ربّ العالمين هذاَ يبعثُه اللهُ رَحمةً للعالمين

روى الحافظ أبو بكر الخرائطي من طريق يونس بن أي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش، لما أشرفوا على الراهب- يعني: بحيرى- هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم. قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: ذا سيد العالمين (وفي رواية البيهقي زيادة: هذا رسول رب العالمين؛ يبعثه الله رحمة للعالمين).

فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه.

ثم رجع فصنع هم طعاماً، فلما أتاهم به– وكان هو في رعية الإبل– فقال: أرسلوا إليه. فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة! فلما دنا القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقلتوه، فالتفت، فإذا هو سبعة نفر من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا: لا؛ إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه؛ هل يستطيع أحد رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه عنده، قال:

فقال الراهب: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب.

فلم يزل يناشده حتى رده، وبعث معه أبو بكر وبلالاً[1]، وزوده الراهب من الكعك والزيت.[2]

---

(١) وقع هذا في كتاب الترمذي وغيره أن بلالا كان موجودا وليس كذلك وقد أخرجه البزار في مسنده ولم يذكر بلالا أنظر زاد المعاد (١/٧٦،٧٧).

(٢) صحيح السيرة للشيخ الألباني (ص١٣)، وقد حقق فيها القول الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية (٢/ ٢٨٥) تحقيقا جيدا فراجعه.

سابعا: شهوده ﷺ حرب الفِجَار (٥٨٠ ـ ٥٩٠)

وفي سن العشرين من عمره ﷺ وقعت في سوق عُكاظ حرب بين قريش . ومعهم كنانة . وبين قَيْس عَيْلان، تعرف بحرب الفِجَار وسببها: أن أحد بني كنانة، واسمه البَرَّاض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أي يجهز لهم النبل للرمي[1]

ولم يكن للنبي ﷺ في ذلك الوقت شريعة غير شريعة القبيلة ونصرة القبيلة التي ينتمي إليها، ولذلك شاركهم في هذه الحرب، وهو يحمل بين جوانحه الصدق والأمانة. وأكسبته هذه الحرب مع ما يسمع من حروب العرب علما بأحوال الحروب وما يحدث فيها من ويلات. مما جعله لا يواجه أهل مكة بحرب ولا رفع سلاح في بداية دعوته.

---

(١) الرحيق المختوم (ص٦٧).

ثامنا: حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار، تداعوا لحلف الفُضُول فتم في دار عبد الله بن جُدْعَان التَّيْمِي أحد رؤساء قريش، وكان المتحالفون: بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، وبني أسد بن عبد العزّى، وبني زهرة بن كلاب، وبني تَيْم بن مُرّة تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى تردّ إليه مَظْلِمته، وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه، وقال بعد أن شرّفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جُدعان ما أحبّ أن لي به حُمْر النَّعَمِ ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1] وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دينُ الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.[1]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٧) وابن حبان في صحيحه (٤٣٧٣). وابن حنبل في مسنده (١٦٧٦). والحاكم في مستدركه (٢٨٧٠). والبيهقي في سننه الكبرى (١٢٨٥٦). وأبي يعلى في مسنده (٨٤٥) من حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه به وقد صححه الحافظ المقدسي في الأحاديث المختارة (١١٥/٣) والألباني في الصحيحة (٥٢٤/٤).

(٢) قال الألباني في "السلسلة الصحيحة"(٧٥/١): رواه البخاري في " الأدب المفرد " رقم (٢٧٣)، وابن سعد في " الطبقات " (١ / ١٩٢)، والحاكم (٢ / ٦١٣)، وأحمد (٢ / ٣١٨)، وابن عساكر في " تاريخ دمشق " (٦ / ٢٦٧ / ١) من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا. وهذا إسناد حسن، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي!

تاسعا: حياته ﷺ ورعي الغنم

كان النبيﷺ كغيره من البشر يحتاج إلى الأخذ بالأسباب في تواصل العيش، وقد كانت قريش تعتمد على شيئين، أحدهما: حياة الرعي، والأخرى التجارة.

وقد سافر النبي ﷺ للتجارة وعمل بها وثبتت أمانته فيها، وكذلك عمل في رعي الأغنام فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»(٢).

وقد أكسبه ذلك الصبر والحلم والرأفة والتواضع والسكينة فقد جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»(٣).

- **ما اكتسبه النبيﷺ من رعي الغنم**

وهذه المرحلة التي عاشها النبي ﷺأكسبته عدة من الأخلاق أو قل زادت من خبراته في الآتي:

---

(١) نور اليقين (ص ١٨، ١٩)، وانظر الرحيق المختوم (ص٦٨)، وسيدنا محمد (ص٣١)، والمقتفى من سيرة المصطفى (ص٤٦)، والسيرة للحلبية (١/٢١٠)

(٢) البخاري (٢١٠٢)

(٣) البخاري (٣٠٥٦)

" ١- الصبر: على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا سياسة البشر. وما أحوجنا نحن إلى مثل الصبر في التعامل مع المخالف في عصرنا هذا.

٢- الحلم: فبعضها يتقدم وبعضها يتأخر وبعضها يذهب شمالاً وبعضها جنوباً، فإن كان الراعي غضوباً جمعها بعد شتاتها بصورة مرعبة فتبقى مجتمعة خائفة لا تأكل تخشى من عصا الراعي.

٣- الأناة والقدرة: على جمع شتاتها بعد رعيها بدون أذى يلحق بها، أو نقص في غذاء يصيبها.

٤- الرأفة والعناية بالضعيف: ففي هذه الدنيا الصغير والضعيف والهرم، فيحتاج منه إلى لين ورأفة بها حتى تلحق بصواحبها وترعى مثلهن، وكذا سياسة البشر.

٥- ارتياد أماكن الخصب: والبحث عنها ونصحها في ذلك وتجنيبها مواطن الجدب والهلكة، وكذا سياسة البشر تحتاج إلى بذل الجهد والنصح لهم في توريدهم مواطن الخير وتجنيبهم مواطن الهلكة، وتحسين معاشهم وما يحتاجونه من رزق حلال، وتجنيبهم الأرزاق المحرمة التي تسبب لهم الويلات والفساد، وتوزيع الثروة عليهم كل على حسبه وقدرته وجهده.

٦- التواضع: في رعي الغنم وهو أمر ظاهر وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل

من كبر» فقال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنا؟ فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

٧- ورعي الغنم من أعظم الفرص في الخلوة بالله تعالى والتفكر في خلق السماوات والأرض حيث السماء بنجومها، والأرض بجبالها وأشجارها وأنعامها...

٨- إن الله تعالى قادر على أن يغني محمداً ﷺ عن رعي الغنم، ولكن هذه الفترة تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد.

٩- ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد وصاحب الدعوة يجب أن يستغني عن ما في أيدي الناس ولا يعتمد بدعوته عليهم، فبذلك تبقى قيمته وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشبه والتشكيك فيه، ويتجرد في إخلاص العمل لله تعالى، ويرد شبه الطغاة والظلمة الذي يصورون للناس أن الأنبياء أرادوا الدنيا بدعوتهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾[يونس:٧٨] هكذا يقول فرعون لموسى، ونظراً لسيطرة حب الدنيا وحطامها على عقولهم يظنون أن أي تفكير وأي حركة مراد به الدنيا، ولهذا قالت الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم مبينة استغنائها عنهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ

(١) مسلم (٩١).

لَكُمْ﴾[سبأ:٤٧]، ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ﴾[هود:٢٩].

روى البخاري عَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»(١).

ولاشك أن الاعتماد على الكسب الحر تكسب الإنسان الحرية التامة والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها.

وكان أصحاب رسول الله يتاجرون ويعملون بأيديهم ولا يعتبر غضاضة في حقهم، فهذا عمر يشغله الصفق بالأسواق عن حضور بعض مجالس رسول الله ﷺكما في حديث أبي موسى في الاستئذان «أَخَفِيَ هَذَا عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ يَعْنِي الْخُرُوجَ إِلَى تِجَارَةٍ»(٢).

وفي البخاري عن قتادة: «كان القوم يتبايعون ويتجرون، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله»(٣).

وتقول عائشة رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول اللهﷺ عمال أنفسهم»(١)" (٢)

(١) البخاري (٢٠٧٢).

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣).

(٣) كتاب البيوع – باب التجارة في البز (٢٠٦٢).

عاشرا: زواجه ﷺمن خديجة رضي الله عنها

وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب

وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب.

وكانت خديجة تدعى في الجاهلية: الطاهرة.

وكانت قبل رسول الله ﷺعند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو، وولدت لعتيق هند بن عتيق، ثم خلف عليها أبو هالة مالك بن بناش فولدت له هندا " وهالة.

فهند بن عتيق بن عابد، وهند وهالة ابنا أبي هالة مالك بن بناش أخو ولد رسول الله ﷺمن خديجة بنت خويلد أمهم.[٣]

"وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة وتبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة وكانت قريش قوما تجارا ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس عندهم بشيء." [٤] فسافر مع غلامها ميسرة إلى الشام ثم قفل راجعا" فرأى ميسره من يمنه وخلقه والبركة في سفره والزيادة في الربح ما اشتد به

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧١).

(٢) مدخل لفهم السيرة (ص١٢٧)

(٣) انظر المعجم الكبير للطبراني (٢٢/٤٨٤)

(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس (ج ١/ ص٧٠)

حبه إياه فقدم وهو يهتف به فسبق إلى خديجة فأخبرها خبر ما أصاب من الظفر والربح وما رأى من رسول الله ﷺ" [١]

"أرسلت إليه من يرغبه في الزواج وقيل: إنها أرسلت أختها، وقيل: أرسلت نفيسة مولاة لها، فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، فقالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟»، قالت له: خديجة، قال: «فأنا أفعل»، فذهبت فأخبرت خديجة فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا .... وتزوجها رسولُ الله ﷺوهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، وذلك بعد عودته من الشام بشهرين. وقد حضر رؤساء مضر وحضر أبو بكر رضي الله عنه ذلك العقد "[٢]

وروى أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ خَدِيجَةَ وَكَانَ أَبُوهَا يَرْغَبُ أَنْ يُزَوِّجَهُ فَصَنَعَتْ طَعَامًا وَشَرَابًا فَدَعَتْ أَبَاهَا وَزُمَرًا مِنْ قُرَيْشٍ فَطَعِمُوا وَشَرِبُوا حَتَّى ثَمِلُوا فَقَالَتْ خَدِيجَةُ لأَبِيهَا: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَخْطُبُنِي فَزَوِّجْنِي إِيَّاهُ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ فَخَلَعَتْهُ وَأَلْبَسَتْهُ حُلَّةً وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالآبَاءِ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ سُكْرُهُ نَظَرَ فَإِذَا هُوَ مُخَلَّقٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ فَقَالَ مَا شَأْنِي مَا هَذَا ؟ قَالَتْ: زَوَّجْتَنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ

قَالَ: أَنَا أُزَوِّجُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ لا لَعَمْرِي

(١) المنتخب من أزواج النبي (ص٢٣)

(٢) سيدنا محمد (ص ٣٣)

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَمَا تَسْتَحِي تُرِيدُ أَنْ تُسَفِّهَ نَفْسَكَ عِنْدَ قُرَيْشٍ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّكَ كُنْتَ سَكْرَانَ فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ[١]

حادي عشر: اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة المشرفة مع أهل مكة

لما بلغ النبيﷺ خمس وثلاثون سنة قامت قريش ببناء الكعبة مرة أخرى حين تصدعت جدرانها بسبب سيل نزل بها. وقد شارك النبيﷺفي بنائها فقد روى مسلم في صحيحه عن عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺكَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَانًا.[٢]

وروى أبو داود الطيالسي عن علي رضي الله عنه قال: لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا؛ من يضعه ؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب. فدخل رسول اللهﷺ من باب بني شيبة، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه، وأخذه رسول اللهﷺفوضعه.[٣]

---

(١) أحمد في مسنده (٢٨٤٦) وسنده صحيح

(٢) مسلم (٥١٥) واللفظ له، والبخاري (١٤٧٦)

(٣) صحيح السيرة النبوية للألباني (ص ١٩) وقد أخرج البيهقي في " شعب الإيمان (٣٨٧) من طريق أبي داود الطيالسي

الفصل الثالث

غراء حراء وبدء الوحي

بعد تجديد بناء الكعبة بعدة سنوات بدأ مرحلة جديدة من حياة النبي ﷺ، وهي بمثابة استعدادات لقبول الرسالة التي ستنزل عليه من السماء.

المبحث الأول

غراء حراء

لما قارب عمر النبيﷺ الأربعين عاما، وكانت تأملاته الماضية قد أحدثت فروقا بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السَّوِيق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة . وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد . فيقيم فيه شهر رمضان، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺلهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضَجَّة الحياة وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ... دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .[1]

(١) الرحيق المختوم (ص ٧٤)

المبحث الثاني

الرؤيا الصادقة ونزول الوحي

روى البخاري في صحيحه (٣) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ !

قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ !

قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ !

قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ !

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ !

فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ: ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣)﴾[العلق: ١ ٣]

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟!!

قَالَ: نَعَمْ ! لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي

إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) . إِلَى قَوْلِهِ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾[المدثر: ١ ـ ٥] فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ.(١)

ولا يحتاج الكلام إلى تعليق، ففيه كل المعاني، وكل الدلالات، وكل العبر والعظات، حدث هز سيد الأولين والآخرين ألا يهز الأرض والسماء وقد قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١]

مهد أمين الله على وحيه جبريل الأمر لسيد الخلق بكلمة: اقرأ، ولم يدفع إليه بكل الآيات مرة واحدة، وضمه في كل مرة، ليتحمل هذا القلب العظيم هذا القرآن العظيم.

ها هنا في قلب الغار اختُصر تاريخ الإنسان، فيا له من مكان غمر في جوفه الزمان ولقد تكون بعض الأحداث في التاريخ أكبر من التاريخ نفسه !! ويوم حراء أكبر وأخلد من التاريخ. وأكرِم بيوم تم فيه اللقاء بين أمين الأرض وأمين السماء!(٢)

(١) البخاري (٣)

(٢) مقدمة كتاب ربحت محمد ولم أخسر المسيح: د عبد المعطي الدالاتي

المبحث الثالث

ظهور دعوة النبيﷺ وأساليب أهل مكة في مجابهتا

كان من الطبيعي أن تقف قريش في وجه هذه الدعوة الجديدة التي حيرت عقولهم وقلبت حياتهم رأسا على عقب بعد أن اكتشفوا مدى سذاجتهم في عبادتهم لأحجار لا تنفع ولا تضر، ومدى جهلهم بالله تعالى. فاتخذت لمجابهة هذه الدعوة الجديدة كل ما تستطيعه في الحيلولة دون بلوغها مأربها، من هذه الوسائل:

١ . السلبية في التعامل مع الحدث

بدأت المقاومة سلبية في أول أمرها، فقد أظهر رجال الملأ عدم الاكتراث بالدعوة الجديدة، ونظروا إليها نظرة استخفاف، فلم تعنهم كثيرًا، وظنوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل، من الساخطين على الأصنام، الباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الديانات الأخرى، وإن كان يختلف عنهم في أنه يخبر أنه يتلقى الوحي من السماء، وكان يحلوا لهم أن يشيروا إليه كما رأوه: هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء [(١)].

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول لأحمد إبراهيم الشريف ط: دار الفكر العربي (ص ٢٢١)

٢ . شكوى قريش

لما بدأت دعوة النبي ﷺ في الانتشار وبدأ أهل مكة يضيقون ذرعا بهذه الدعوة شكوا إلى أبي طالب عم النبي ﷺ . أخرج الطبراني من حديث يُونُسُ بن بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا طَلْحَةُ بن يَحْيَى، عَنْ مُوسَى بن طَلْحَةَ، أَخْبَرَنِي عُقَيْلُ بن أَبِي طَالِبٍ، قَالَ : جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا وَفِي مَجْلِسِنَا فَانْهَهُ عَنْ إِيذَائِنَا، فَقَالَ لِي: يَا عُقَيْلُ ائْتِ مُحَمَّدًا، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِ فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ كِبْسٍ . قَالَ طَلْحَةُ: بَيْتٌ صَغِيرٌ . فَجَاءَ فِي الظُّهْرِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْفَيْءَ يَمْشِي فِيهِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْضَاءِ، فَأَتَيْنَاهُمْ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: إِنَّ بني عَمِّكَ زَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ فِي نَادِيهِمْ وَفِي مَجْلِسِهِمْ، فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ فَحَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: "مَا تَرَوْنَ هَذَا الشَّمْسَ ؟ "قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ :"مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً" قَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي قَطُّ فَارْجِعُوا.(١)

٣ . المساومة مع النبي ﷺ

ولما لم يصلح مجال الشكوى لأبي طالب لجأت قريش إلى مساومة النبي ﷺ على الملك والمال والجاه وغيرها من أمور الدنيا، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة يساومه، ودار بينه وبين النبي ﷺ حوار. رجع بعدها عتبة يخبرهم

(١) إسناده حسن: المعجم الكبير (١٣٩٤٦)،وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٩٤) وأبو يعلى في مسنده (٦٦٥٧) وأخرجه الطبراني أيضا في الأوسط (٨٧٩١) من حديث عبد الواحد بن زياد عن طلحة بن يحيى به

بأن لا سبيل إلى منع النبيﷺ من دعوته فعليهم أن يتركوا محمد وشأنه. كما سيأتي تفصيل ذلك.

٤ . الاستهزاء والسخرية والكذب

لم يصلح مع النبي ﷺ الشكوى ولا المساومة أيضا فلجأت قريش إلى الأسلوب الخسيس الذي يتخذه كل ضعيف لا مبدأ له غير نصرة نفسه وعصبيته.

. اتهموه بالجنون بعدما حدقوا فيه أعين الحقد والحسد

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[القلم:٥١]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر:٦]

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه في آية القلم ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]

. اتهموه بالسحر والكهانة برغم اعترافهم أن ما يقوله أبعد عن قول الكهان والسحرة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾[الفرقان: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[صّ: ٤].

قال تعالى لنبيه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾[الطور:٢٩]

وقال ردا على المشركين: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة:٤٢]

. اتهموه بالكذب برغم أنهم ما جربوا عليه كذب قط

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[صّ: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾[الفرقان:٤]

ـ اتهموه بالإتيان بالأساطير لتشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعاوي الكاذبة

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[الفرقان:٥]

. وقالوا إن القرآن ليس من عند الله وإنما من عند البشر:

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]

. السخرية والاستهزاء والضحك.

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك في نفس رسول اللهﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[الحجر:٩٧]، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٨، ٩٩]، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾[الحجر: ٩٥، ٩٦]، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم

فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[الأنعام:١٠].(١)

وروى البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الْآيَةَ(٢)

٥ . التشويه عليه وصرف الناس عنه والحيلولة بينهم وبين سماع القرآن

" كان المشركون بجنب إثارة هذه الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦] حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة

(١) الرحيق المختوم (ص ٩٤)

(٢) البخاري (٤٢٨١)

الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.[١]

٦ . استعمال العنف

ولما لم يصلح معه كل ما مضى لم يجدوا بدا من استعمال العنف مع النبي ﷺوأصحابه، فمنهم من قتل كسمية وزوجها ياسر ومنهم من عذب عذابا شديدا كبلال بن رباح وخباب بن الأرت وغيرهما كما سيأتي.

وما وجد الصحابة بد من الصبر على هذا الأذى حتى يأتي نصر الله تعالى

خاتمة:

في خاتمة هذا التمهيد ظهر لنا جليا شخصية النبي ﷺالخلقية، والبيئة التي نشأ فيها والأحوال التي مر بها رسول الله ﷺ. وكيف أثقلت هذه المراحل من شخصيته ﷺ، وهيئ لتحمل هذه المسؤولية العظيمة. فعند نزول الرسالة عليه تكون المهارات التي اكتسبها ساعدته على مواصلة المسيرة حتى يكون نصر الله تعالى.

وعرفنا كيف يفكر أهل مكة، وما هي طبائعهم وعادتهم، وأخلاقهم. وكيف يمكن التعامل مع هؤلاء عند مخالفة ما هم عليه.

---

(٢) الرحيق المختوم (ص٩٥)

القسم الثاني

تعامل النبيﷺ مع المخالف في العهد المكي

وفي هذا القسم نظهر فيه كيفية تعامل رسول الله ﷺ مع مخالفيه أثناء وجوده في مكة قبل أن يؤذن له بالهجرة إلى المدينة وتكون له قوة ومنعة.

الفصل الأول

السرية في الدعوة

- **تمهيد:**

من الضرر أن يكون الإنسان في ظلام دامس عمرا كاملا ثم تخرجه فجأة إلى شمس ساطعة في رابعة النهار، فبدلا من نقله من الظلمة إلى النور فقد طمست فيه النور كلية وأصبح في ظلام دائم طوال عمره، فلابد من إخراجه من ظلماته رويدا رويدا حتى تتعود العين على النور بعد عيشها في الظلمة، كذلك كانت الرسالة المحمدية، هي الشمس الساطعة في وضح النهار من غير غيوم، وكانت حياة أهل مكة في ظلام دامس. فكان لابد من التدرج في إخراجهم من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد والعلم. وكان هذا التدرج لابد وأن يبدأ بالسرية لتهيئة النفوس إلى قبول الحق.

ولابد من توضيح أمر مهم، وهو أن اختيار السرية في الدعوة كان بوحي من الله تعالى لأنه ﷺ بعد البعثة كانت تصرفاته الخاصة بالرسالة بوحي من الله تعالى.

- **تعريف الدعوة** [1]

لغة: اسم من الفعل (دعا) ومعناها: مطلق الطلب لأي شيء حسي كطعام أو معنوي كفكرة وعند ابن فارس: هي فن الإمالة للجمهور نحو شيء معين بأي وسيلة متاحة.

(١) انظر مفاهيم يجب أن تصحح: وهو ملف ورد تبع لموقع وزارة الأوقاف المصرية (ص ١٥٠) http://www.islamic-council.com

واصطلاحا: ورد في تعريفها عدة تعريفات منها:

"العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق.

أو هي "تبليغ الإسلام للناس وتعليمهم إياه وتطبيقه في مواقع الحياة "أو "هي برنامج كامل يعم جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريقة التي تجمعهم راشدين.

أو هي فن يستميل الناس إلى الإسلام بالوسائل المناسبة ليتعلموه ويطبقوه في واقع الحياة".

- **والدعوة بهذا المفهوم:**

إما أن نتوجه بها إلى غير المؤمنين بالإسلام لنكشف لهم عن محاسن هذا الدين واستقامة عقيدته ونبل مقاصده وعظمة تشريعاته وغالبا ما يكون ذلك في المجتمعات غير الإسلامية كأوربا وأمريكا وغيرها.

وإما أن نتوجه بها إلى المؤمنين به والمعتنقين له لنأخذ بأيديهم ونبصرهم حتى يعملوا بمقتضى مبادئ هذا الدين ويسيروا على نهجه الذي اختاروه في العقيدة والعبادة والسلوك والأخلاق والمعاملات.

وعلى كلٍ فإن كلمة الدعوة من الألفاظ المشتركة التي تطلق على الإسلام كدين وعلى عملية نشره وتبليغه للناس، وسياق الكلام هو الذي يحدد المعنى

المراد؛ فمثلا إذا قيل: هذا من رجال الدعوة إلى الله؛ كان معنى الدعوة هنا محاولات النشر والتبليغ، وإذا قيل: اتبعوا دعوة الله؛ كان المراد الإسلام.

وإذا ذكرت على إطلاقها فإنها تنصرف عرفا إلى محاولة نشر الإسلام وتبليغه للعالمين، وهو المعنى الذي تواردت عليه معظم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وخير من قام بتبليغ الدعوة هو الرسول ﷺ بعد أن أعده الله لها وهيأه لحملها ثم كلفه بتبليغها حين نزل عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر﴾[المدثر:١-٢].

- **سرية الدعوة:**

بعد أن نزلت سورة: «يا أيها المدثر» أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله تعالى وتتابع الوحي، ونزول هذه السورة ابتداء رسالته ﷺ فهي متأخرة عن نبوته، وصار عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام خفية ثلاث سنين؛ لعدم الأمر بالإظهار إلى أن أُمر بإظهار الدعوة، وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشعاب ليستخفي بصلاته من المشركين، حتى اطلع نفر من المشركين على سعد بن أبي وقاص وهو في نفرٍ من المسلمين يصلون في بعض الشعاب، فناكروهم، وعابوا ما يصنعون، وقاتلوهم، فضرب سعد رجلاً منهم فشجه، وهو أول دم أهريق في الإسلام، فعند ذلك انفرد رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم مستخفين بصلاتهم وعبادتهم إلى أن

أمره الله تعالى بإظهار الدين، ودار الأرقم هي دار للأرقم بن أبي الأرقم من السابقين في الإسلام وهي في أصل الصفا.

وقد أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله فجاء إلى رسول اللهﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا وهنا يجب أن نذكر شيئاً عنهم لرفعة شأنهم.[1]

(١) سيدنا محمد لمحمد رشيد رضا ملف (ورد)

المبحث الأول

أسباب سرية الدعوة

إذا نظرنا إلى سرية الدعوة وأسبابها وموقف كثير من الكتاب من هذه الحكمة، يتجه النظر مباشرة إلى حالة الضعف التي كان فيها النبي ﷺ في بداية هذه الدعوة، وهذا قصور فهم في إدراك كنه هذا السبب.

وإنما هناك أكثر من سبب:

السبب الأول: الضعف البدني والمادي الذي كان فيه النبيﷺ وأصحابه في هذه المرحلة وهو ما يعنيه كثير من الكتاب في الكلام عنها.

السبب الثاني: الضعف العقلي الذي كان يرزح فيه أهل مكة ويتمثل في عدم قبول هذه الدعوة الجديدة التي تتعارض تماما مع معتقداتهم وأهم عاداتهم، وهذا ما لم يتطرق إليه كاتب

وهذا له عدة أسباب منها:

١ ـ العصبية القبلية التي تتمتع بها مكة عن غيرها من القبائل العربية

٢ ـ العصبية التي تتناحر عليها أهل مكة ذاتها في ما بينهم. فيصعب على غير الهاشميين قبول رياسة الهاشميين المطلقة. فيقع التناحر بين القبائل لأجل هذا الأمر

٣ ـ الأحقاد بين الأقارب في القبيلة الواحدة أو الأسرة الواحدة.

السبب الثالث: تهيئة المناخ الملائم لقبول هذه الدعوة

المطلب الأول

ضعف النبيﷺ وأصحابه في مواجهة أهل مكة

فإنه مما لا شك فيه أن ضعف الإنسان في مواجهة أهل الباطل وهم يملكون القوة والعدة لسبب يدفع صاحب الدعوة إلى اتخاذ التدابير اللازمة لنجاح دعوته، ومنها الاختفاء حتى يجد لها مخرجا يظهر به أمام الناس ويجهر بها.

ولذلك قال لوط عليه السلام مشيرا إلى هذا الأمر فقال لقومه حين دخل عليه ضيوفه وهددوه فيهم وهو لا يعلم أنهم ملائكة الله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود٨٠]

وأيضا فعل موسى عليه السلام فقال لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص٣٣]

فقام رسول الله ﷺبعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ضامنين حفظ كيانها. فمكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة

الكعبة، والقوَّام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عُسرًا وشدة عما لو كان بعيدًا عنها، فالأمر يحتاج إلى عزيمة قوية لا تزلزلها المصائب والكوارث، ويحتاج إلى موقف حكيم يحل الوضع الراهن، وتنجح الدعوة من خلاله، ولا شك أن الفضل والمنة لأحكم الحاكمين الذي ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فإنه سبحانه قد أعطى محمدًا ﷺ الحكمة ووفقه، وسددَّه، وأعانه." [1] فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

"ولهذا بدأ ﷺ بالدعوة السرية بعد أن أمره ربه- تبارك وتعالى- بإنذار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك، وما هم عليه من الكفر والفساد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾[المدثر ١ ـ ٧]

ومن هنا بدأ رسول اللّه ﷺ يسلك طريق الحكمة في حل الحالة الراهنة في قريش، فوقف المواقف العظيمة التي يعجز عنها عظماء الرجال بل البشر جميعًا. " [2].

---

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى لسعيد بن وهف القحطاني (ص ١٥٤) وهو ملف في موقع الإسلام http://www.al-islam.com وموقع الشاملة

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى

- **ويأتي سؤال هنا:**

هل تصلح الدعوة السرية في عصرنا هذا، وقد انتشر الإسلام وكمل الدين ولا غضاضة من الجهر بالدعوة ؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الاقتداء بالنبي ﷺ لا يرتبط بزمن دون زمن

فإن الله تعالى قد أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه الكتاب، وكانت مدة هذه الرسالة ثلاثة وعشرين سنة، فلو أن الاقتداء بالنبي ﷺ مرتبط بزمن دون زمن لكانت العبرة في رسالته وهي القرآن وليس في هديه ﷺ ولا سنته.

لكن الله تبارك وتعالى ربط الدين بسيرة النبي ﷺ وهديه منذ أن بعثه وحتى وفاته، فحياته الدعوية كلها هي المقصود بالاقتداء بها كما جاء في أكثر من آية منها:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[الأحزاب:٢١]

فالأسوة لا تقدر بزمن دون زمن ولا مرحلة دون أخرى فحياته الدعوية كلها أسوة، ومن ادعى غير ذلك فقد تقول على الله بغير علم.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة:١٩]

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[سورة العصر]

ومن المعروف أن العهد المكي لم ينزل فيه شيء من التكاليف الشرعية غير الصلاة في آخره، فما المقصود بـ" عملوا الصالحات" في السور المكية إذا لم يكن هناك اقتداء برسول الله ﷺ في هذه الفترة ؟

وهل نقول أن سورة العصر منسوخة بالسور المدنية ؟، أم أننا نعمل بما جاء وفقها، ونقتدي بهدي النبي ﷺ في هذه المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة.

الوجه الثاني: كل زمن من الأزمان فيه ما يشبه العهد المكي

ولا يشترط أن يكون في بلد بأكملها؛ بل ربما يوجد في جزء من البلد الواحد مكان يحتاج إليه إلى الإسرار بالدعوة كما فعل النبي ﷺ. ومن يجهل الواقع في كل زمان ومكان يقول بغير ذلك !!! لأنه ربما يحكم على الأمر بمكانه هو أو بحسب المجتمع المحيط حوله، ولكنه لم يحط بكل أحوال الناس في شتى بقاع الأرض علما، لذلك فدعوة النبيﷺ صالحة إلى يوم القيامة في كل المراحل التي مر بها وحتى مماته.

والأمثلة على ذلك كثيرة وموجودة إلى يومنا هذا سواء كانت من أهل الكفر والإلحاد أو من أهل البدع والضلال فمنها:

١. في عصر من العصور كان المذهب الأشعري هو المذهب السائد في البلاد أو في كثير من البلاد، وهو مذهب مخالف لمذهب أهل السنة في كثير من

أمور العقيدة. ومع ذلك لم يكن لمن يعتقد مذهب السلف أن يصرح بمذهبه ويعلنه أمام الناس. فإن فعل تعرض للقتل أو الحبس أو الضرب

٢ . عصر وصول المعتزلة إلى الخلافة وكانت فتنة خلق القرآن معروفة، فمن صرح بعقيدته قطعت رقبته، وقتل في هذه المحنة كثير من أهل العلم وابتلي الإمام أحمد بها. وأسر كثير من الناس عقيدتهم.

٣ . وعصر الاتحاد السوفيتي في العصر الحالي عندما ابتلع الدب الروسي بلاد الإسلام وقتل فيها من قتل وهجر من هجر وعذب من عذب وفرض الإلحاد دينا بدلا عن الإسلام، وكان الناس لا يجرؤون التصريح بدينهم، ولا يعلمون أطفالهم الدين إلا سرا.

٤ . والآن في إيران ما هو موقف أهل السنة ؟ ألم يمنع علماء السنة من زيارة إخوانهم السنة في إيران، ويعيشون عصور الاضطهاد ولا يستطيعوا الجهر بدعوتهم للحق، ويعرض أطفالهم في المدارس للتشيع إجباريا بمذهب الرفض

٥ . ألم تغير أسماء المسلمين في يوغسلافيا وألبانيا إلى أسماء أخرى جبرا وقهرا، ولم يكن أحد يستطيع الجهر بدعوته؟ وتزوج المسلمة بنصراني أو ملحد قهرا إذا حكمة سرية الدعوة مستمرة وغير متوقفة على زمن دون زمن، والحق في صراع مع الباطل دائما. فيسر بالدعوة أحيانا ويجهر بها أحيانا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الوجه الثالث: فائدة سرية الدعوة مستمرة

وذلك أنها تعطى الفرصة للمسلمين بالتخفي من الأعداء حتى يكونوا أولي قوة في مجابهتم، وهذا ما فعله النبي ﷺ حين كان بمكة، فقد أعد أشخاصا ليكونوا بجانبه في مجابهة الصد المتوقع.

وحتى بعد إعلان الدعوة وجهريتها كان النبي ﷺ يلجأ إلى السرية في كثير من الأحيان. فبيعة العقبة الأولى والثانية كانت دعوة سرية في ظل العلنية الموجودة والمجابهات بين المسلمين والكفار.

وإبعاد الدعوة عن خطر أعدائها من الداخل أو الخارج، وعدم تعرضها للإبادة من بدايتها.

المطلب الثاني

ضعف عقلية أهل الباطل في تحمل الحق جملة واحدة

وهذا السبب لا يقل فائدة عما سبقه، فإن صاحب الباطل من الصعب عليه أن يواجه فجأة بالحق من شخص واحد أو من اثنين، فلابد من التدرج معه حتى يقنع نفسه بما هو عليه من الباطل. فمع مفاجأته بالحق يغيب عقله وتنفلت أعصابه، ويسيطر عليه الغضب والانتصار للنفس. ومن طبائع الناس: الميل مع الأقوى عدة والأكثر عددا رغبة في تجنب الشر.

ولذلك كانت السرية في الدعوة مطلوبة في تدرج قبول الدعوة عند كثير من أهل مكة.

فالعائق النفسي الذي يواجه أهل مكة من دعوة تقابل معتقداتهم، وتهدم صروح المجد الذي يعيشون فيه من اعتقادهم سيادة العرب بسيطرتهم على البيت الحرام، ليس من السهل تخطيه هكذا فجأة وبدون مقدمات تمهد الطريق إلى تخطي هذا العائق. فليس كل إنسان يتحلى بالشجاعة الحقيقية وهي قبول التنازل عن خطأه فجأة. فهذه الشجاعة لا توجد إلا في النادر من الرجال، وهذا النادر من الرجال حتى يقبل هذا الحق من غير تردد فلابد من خلو المكان حوله من مثبطات تحول بينه وبين قبوله للحق. وهذا الأمر لا يتأتى إلا من خلال الدعوة السرية.

وهناك عدة أسباب تؤدي إلى صد الكفار عن دعوة الحق إذا ما جوبهوا مباشرة وعلنا منها:

١ . العصبية التي تتحكم في أهل مكة

فهم يعتقدون أنهم سادات الحرب بتحكمهم في مكان عبادتهم، فالبيت ليس معبدا لقبيلة دون قبيلة؛ بل لكل العرب ومكان حجهم كل عام، وإن اختلفت توجهاتهم العقائدية من خلال تعدد الأصنام الكثيرة التي يتجهون لها بالعبادة والتعظيم.

فكون أهل العبادة والتي هي أيضا مصدرا لرزقهم من خلال قدوم الحجيج كل عام ورواج تجارتهم. يتنازلون فجأة عنها معتقدين بطلانها، فهذا لا يكون.

فكل من يعبد صنم من الأصنام يعتقد أنه هو الأفضل من كل الأصنام التي يعبدونها القبائل الأخرى. ففجأة يتساقط هذا التعظيم لهذا الصنم واعتباره أنه لا فائدة فيه وأن ما يفعلونه إنما هو عبث لا تقبله العقول السليمة ! هذا فيه إهانة لهم، ولآبائهم الذين ماتوا على هذه العقيدة.

ولذلك أصروا عليه فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[البقرة١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[لقمان:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣].

هذا الاعتبار يوجد في كل عصر من العصور، فهو حاجز نفسي داخل الإنسان، فالداعية الناجح هو الذي يقدر للأمور قدرها، ولا يجابه الناس بما هو ضد معتقدهم من قبل أن يقدم مقدمات تزيل مثل هذه الحواجز.

فالمبتدع مثلا: يعتقد منذ زمن أن ما هو عليه هو الحق وأن مخالفه على غير الحق. فمن الصعب أن يجابه ببدعته من غير مقدمات، وخاصة إذا كان ينافح عنها ويجادل عنها. فهذا أشد صعوبة ممن اعتقدها ولا يدافع عنها. فلابد من مراعاة ذلك كله.

ولذلك فرق السلف بين الداعية لبدعته وغير الداعية، وبين قبول كلام الداعية مطلقا أو قبوله في غير بدعته.

وليس من السهل مجابهة مجتمع يعيش على بدعة دهورا توارثوها عن آبائهم وأجدادهم بإعلان خطئهم فجأة وبدون مقدمات. فلابد إذاً من استعداد للتغيير.

٢ . العصبية القبلية في أهل مكة

فكل قبيلة تتسابق على إحراز الشرف في ارتباطها بهذا البيت، فعندما يأتي رجل من قبيلة ما ويفرض الشرف الكامل له في تغيير معتقدات القوم تكمن الكارثة، وتتضارب النفسيات، وتتداخل المفاهيم، وهم في غنى عن مثل ذلك.

فهذا وغيره من الحواجز النفسية التي تكون سببا في عدم قبول دعوة الحق أو تأخير هذا القبول. وهي تكثر كثيرا في مجتمعاتنا، فكثير من القبائل لا يقبلون كلاما لمن هو في غير قبيلتهم، وخاصة إذا كانوا في نزاع على أمر من أمور الدنيا.

ومثال على ذلك هذا: الأخنس بن شريق يذهب إلى أبي جهل حتى دخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال: ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحلمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء !! فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه.[١]

وكل مجتمع له من هذه العصبية نصيب، فلأجل أن تبلغ دعوة الداعية إلى كل البشر فعليه أولا أن يتخلص هو من هذه الموروثات العصبية، وأن يعلن

(١) تهذيب سيرة ابن هشام (ص ٨٩)

أمام القاصي والداني براءته من هذه العصبية وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فرق بين عربي على أعجمي ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى والعمل الصالح. فلو أحست منه القبائل الأخرى عصبية لقبيلته أو عائلته أو بلده لفقد مصداقيته عند كثير من الناس.

٣ . رسوخ معتقدات الشرك في نفوسهم

"إن كفار قريش، لم يفكروا في مناقشة ما يسمعون من الآيات القرآنية التي كان يتلوها رسول الله ﷺ وأصحابه، بل كانوا يتهمونه بالكذب تارة أو بالجنون أو بالسحر ويضربون من يجهر بالقرآن، وهذا سلاح الضعيف الجاهل، إن رسول الله كان يعيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويقول: إنها أصنام صنعتموها بأيديكم وهي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فاتركوها واعبدوا الله خالق السماوات والأرض ويعدد لهم صفاته وقدرته جل شأنه، فلولا رسوخ العقيدة الباطلة في نفوسهم، والعقائد الباطلة القديمة، تشل عقل معتنقيها، نقول لولا رسوخ العقيدة، لحكموا عقولهم وبادروا إلى الإيمان بالله، لكن عزَّ عليهم أن يأتي رجل منهم ويتهمهم بالكفر والضلال ويعيب تلك الآلهة القديمة التي وجدوا آباءهم وأجدادهم يسجدون لها ويقدمون لها الذبائح والهدايا، فالتجأوا إلى الضرب والشتم وهذا شأن كل جاهل متعصب، ولما دخل رسول الله مكة فاتحاً وأمر بهدم تلك الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها مقدسة لا يقدر أحد على إيصال الأذى إليها، وهدمت

بالفعل ووجد أن لا حول لها ولا قوة وقتل من كان فيها من المشعوذين، أيقنوا أنهم كانوا في ضلال مبين فقال الرسول: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطِلُ إِنَّ الْبَطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨١]، فاللهم طهِّر قلوبنا من الشرك وأَمِتْنا مسلمين."[١]

(١) انظر "سيدنا محمد" لرشيد رضا

المطلب الثالث

تهيئة المناخ الملائم لقبول هذه الدعوة

وهذا هو السبب الثالث الذي من أجله تشرع سرية الدعوة، فكل عصر له أوضاعه وأحكامه المنوطة به والتي تعود عليها الناس، وكل بيئة لها عادتها وتقاليدها التي ورثوها عن أجدادهم. فقضية التغيير إنما هي واقعة انقلاب على كل تلك الأوضاع والعادات، ومن البديهي أن كل انقلاب فجائي يكون ضرره أكثر من نفعه لأي دعوة كانت، فلأجل توخي الحذر والتقليل من المفاسد التي قد تحدث، والتكثير من شأن المصلحة المرجوة لابد من عمل تهيئة. فكل دعوة معرضة للمفاسد والمصالح مهما كانت هذه الدعوة حق أو باطل، ولابد فيها من تضحيات، ولا توجد دعوة على وجه الأرض تقوم من غير خسائر، سواء كانت في البشر أو في الأموال، فالسرية لتهيئة المناخ الملائم هي القوة التي تدفع بأي دعوة إلى الأمام وتجعلها صامدة أمام الصواعق التي ستتلقاها من المعادين لها.

فكانت "الدعوة السرية فرصة للتربية، والتكوين، ومرحلة لإعداد المؤمنين حتى يشتد عودهم، وتقوى على تحمل البلاء نفوسهم.

لأن الرسول ﷺ جاءهم بدين لم يعرفوه، وبأمر لم يألفوه، فلو أنه واجههم به لأول وهلة لحالوا بينه وبين الاتصال بالناس، ولم يمكنوه من تبليغ دعوته،

وحينئذ لم يتوفر لديه فرصة الالتقاء بمن آمنوا به ليعلمهم ويفقههم في الدين، ويربيهم التربية التي تؤهلهم للنهوض بالعبء الضخم الذي ينتظرهم.

ـ تعليم للدعاة وإرشاد لهم في كل زمان ومكان إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة."[1]

(١) الأنوار في سيرة النبي المختار لسليمان بن محمد اللهيميد (ملف ورد)

المبحث الثاني

الأسباب التي اتخذها النبيﷺ لدعوته السرية

إذا كانت الحكمة من الدعوة السرية هي ترك مجابهة قوة أهل مكة في مرحلة الضعف المادي بالنسبة للنبي وأصحابه، والضعف العقلي بالنسبة لأهل مكة لإنجاح الدعوة وتقليل نسبة الخسائر بقدر الإمكان، فلابد من أسباب يتوصل بها إلى المقصود، وقد اتخذ النبيﷺ عدة أسباب نذكر أهمها:

المطلب الأول

دعوة أقرب الناس إليه

كان لابد من أن يتجه النبي ﷺ إلى خلانه، ومن يثق فيهم تمام الثقة حتى لا يكون في التسرع وأد للدعوة في مهدها، فكان جانب الحيطة والحذر مطلوب في هذه المرحلة التي تمثل أشد مرحلة تمر على رسول من قبل وذلك لاعتبارات منها:

١ ـ أن النبي ﷺكان آخر الأنبياء ودعوته هي آخر دعوة تنزل إلى البشر من قبل السماء، فكان لابد من نصرة هذه الدعوة نصرة تضمن معها الاستمرارية

٢ ـ أن دعوة كل نبي كانت مختصة بقوم دون قوم، وهذا كان من السهل في تنفيذ مهمته التي كلف بها، أما دعوة النبي ﷺ فهي دعوة للجن والإنس قاطبة إلى يوم القيامة، فلابد من عمل لها يفوق كل عقل وخيال.

٣ ـ أن النبي ﷺ بعث في مكة مركز القبائل العربية، ومكان حجها ومركزا للتجارة، وطبيعة قومها تتطلب الاحتفاظ بالمكانة وحفظ الأصنام أمام القبائل العربية الأخرى. فكون النبي يأتي بدعوة تناقض كل هذه المعبودات مما يتطلب مواجهة قوية، فكان لابد ممن يقف بجواره ليسانده في دعوته على إقناع الناس بصدقه.

٤ ـ أن العوامل النفسية التركيبية لكل إنسان تختلف من إنسان لآخر، فقد يكون هناك من هو معي ومقرب إليَّ، وعند إهماله في مثل ذلك أو عدم إشراكه قد يحدث فيه انقلاب مضاد. فالسرية حافز على تضحيته وتحمل المسؤولية. وقد كانت العرب تفتخر بإجارة الناس حتى ولو كانوا أعدائهم، وتعتبر ذلك رفع لمكانتهم.

فلابد من اختيار من هو مهيأ نفسيا إلى قبول هذه الدعوة لئلا يحدث التصادم منذ البداية.

دعوة أبي بكر الصديق

ومن هنا بدأ النبي ﷺ بصديق عمره أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة، واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.[1]

"كان أبو بكر الصديق في الجاهلية من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، فالعباس ابن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام وأبو سفيان بن حرب من بني أمية، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه، والحارث بن عامر بن بني نوفل، وكانت إليه الرفادة، وهي ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع السبيل، وعثمان بن طلحة بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة فلا يُجمع على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق ولاهم عليه، وإلا تخيّر وكانوا له أعواناً، وأبو بكر الصديق من بني تيم وكانت إليه الأشناق وهي الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه، وامضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه، وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش،

(١) جوامع السيرة لابن حزم الأندلسي (ص٤٥)، وقد ذكر ابن حجر في الإصابة (٤/١٤٤،١٤٥) أنه عبد الله بن عثمان

وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب. وعمر بن الخطاب من بني عدي، وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وصفوان بن أمية من بني جمح، وكانت إليه الأزلام. والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم.

لقد كان الصديق في المجتمع الجاهلي شريفاً من أشراف قريش وكان من خيارهم، ويستعينون به فيما نابهم وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد.(١)

ولم يسجد رضي الله عنه لصنم قط، ولا شرب خمرا، وقد أجاب الصديق من سأله هل شربت الخمر في الجاهلية ؟ بقوله: أعوذ بالله، فقيل: ولم ؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيّعاً لعرضه ومروءته (٢)

وقد كان رأي النبي ﷺ صائبا في اختياره لمثل أبي بكر، وكأنه كنز قد ادخره الله تعالى وهيئه لنبيه، وعونا من الله تعالى بأن اختار له هذه العقلية الحكيمة التي تتمتع بكل تقدير واحترام من قبائل العرب. ولقد سر النبي ﷺ فور استجابة أبي بكر لدعوته وإسلامه.

" وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافاً، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح

(١) أبو بكر الصديق لمحمد علي الصلابي (ص١٣)

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٤٨)

وحده عنصر كافٍ لإلفة القوم وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: أرحم أمتي بأمتي أبوبكر [١]، وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أ علمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته، وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التاجر الأول في مكة، فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه تجد عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه، كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيماً، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق." [٢]

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩٠٤)، (١٣٩٩٠) والترمذي (٣٧٢٣) وابن ماجة (١٥١) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أبو بكر الصديق للصلابي(ص٢٠)

ثمار دعوة الصديق

وكان من ثمار دعوة أبي بكر الصديق " دخول صفوة من خيرة الخلق في الإسلام وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبوسلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنهم، وجاء بهؤلاء الصحابة الكرام فرادى فأسلموا بين يدي رسول اللهﷺ، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺوبهم أعزه الله و أيده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام" [1]

ولم ينس أبو بكر أهل بيته اهتم بهم ودخلوا جميعا في دين الله تعالى.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من أسلم من الغلمان فقد قال: قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺوصدق بما جاءه من الله علي بن أبي طالب، كان رسول الله ﷺ وخديجة يصليان سرا ثم إن علي بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيوم فوجدهما بصليان فقال علي: ما

(١) المصدر السابق (ص ٢٢)

هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وكفر باللات والعزي.

فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب.

وكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا.

فمكث علي تلك الليلة، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع في قلب علي الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺحتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد: فقال له رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد.

ففعل علي رضي الله تعالى عنه وأسلم، فمكث علي يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم إسلامه ولم يظهره [1]

وبهذا استطاع النبي ﷺ من خلال هذه الدعوة السرية والفردية من قبله وقبل أصحابه أن يكون ركيزة ممن يتحملون عبئ هذه الدعوة.

ومن هنا لابد من أي دعوة تخالف المجتمع التي نشأت فيه أن تستعمل الحكمة في اختيار أول لبنة من البشر ليكونوا ركيزة لها في الانتشار بين الناس. والناظر بعين البصيرة والتدبر يجد فيمن أسلموا في الدعوة السرية هم

(١) سبل الهدى والرشاد (ج ٢ / ص ٣٠٠) وانظر دلائل النبوة للبيهقي (١٦١/٢)

من حملوا الإسلام ونصروه وتم على أيديهم فتح البلاد فقد كان منهم ثلاثة من الخلفاء الراشدين، وفاتح بلاد الفرس سعد بن أبي وقاص، وفاتح بلاد الشام أبو عبيدة بن الجراح.

إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

وقد كان إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه محاط بسرية تامة إلى أن أعلن إسلام أمام الملأ من قريش.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أَبُي جَمْرَةَ قَالَ: قَالَ لَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ . قَالَ: قُلْنَا: بَلَى.

قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ رَجُلا مِنْ غِفَارٍ فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لأَخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ، فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ ؟

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلا يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ

فَقُلْتُ لَهُ : لَمْ تَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ، فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ، فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ

قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ؟

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ

قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلا أُخْبِرُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ

قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا آن لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ؟

قَالَ قُلْتُ: لَا

قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي

قَالَ فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ

قَالَ قُلْتُ لَهُ: بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ

فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ، فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلامَ، فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي

فَقَالَ لِي: يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ، فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لِأَمُوتَ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلا مِنْ غِفَارَ وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ، فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ، فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ، فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ، وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ: مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ، قَالَ: فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١)

التعامل مع المخالف من خلال هذا الحدث:

١. تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزه الدعايات، حتى يقبل كل ما تنشره قريش؛ ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ بعيدًا عن التأثيرات الإعلامية. وهذه مسألة مهمة في مواجهة المخالف بإشاعاته، فلا تقابل الإشاعات بإشاعات مثلها فمحل كل إشاعة البطلان ولو بعد حين

٢. شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول ﷺ فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها، حيث إن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب، وإنما عن رجل يذكر أنه نبي؛ ولذلك تحمل المشاق والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في

(١) البخاري(٣٣٢٨)

سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد بجراب، وارتحل إلى مكة لمعرفة أمر النبوة.

٣ . التأني والتريث في الحصول على المعلومة: حيث تأنى أبو ذر – رضي الله عنه – لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول ﷺ، وهذا التأني تصرف أمني تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرد، ويخسر الوصول إلى هدفه، الذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

٤. الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي – رضي الله عنه – أبا ذر – رضي الله عنه – عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام، إمعانًا في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أراده.

٥ . التغطية الأمنية للتحرك لعدم إثارة المخالف: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر رضي الله عنهما على إشارة أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي – رضي الله عنه – من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم اتجاه المقر (دار الأرقم). هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيعد هذا الموقف احتياطًا، وتحسبًا لكل طارئ قد يحدث أثناء التحرك.

٦ . هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات، وأصبحت له مدارسه الخاصة وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأغلى الأثمان، ويضحي في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر.

وما دام الأمر كذلك فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[1].

(١) السيرة النبوية للصلابي بزيادة واختصار وانظر: دروس في الكتمان، محمود خطاب، (ص٩)، وفي السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي، (ص٥٩،٥٨)

المطلب الثاني

التنقل خفية

استمرت الدعوة ثلاث سنوات في سرية تامة، ولأجل إنجاحها كان ولابد أن تكون حركة النبي ﷺ وأصحابه لدعوة الناس خفية، وأن يتم اللقاء خفية بعيدا عن أعين قريش حتى لا تفسد عليهم دعوتهم. وحتى بعد ظهور الدعوة ووقع الإيذاء على الصحابة كان لابد من أن يتخفى الصحابة في تنقلاتهم حتى في بيوتهم وزيارتهم، التماسا للبعد عن أذى قريش، وقد حدثت بعض التنقلات السرية دون أن تعلم بها قريش ومن أمثلة هذه التحركات الخفية:

١ . هجرة المؤمنين للحبشة:

بدأت الاعتداءات على المؤمنين واضطهادهم في السنة الرابعة من النبوة، وقد بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، حتى تفاقمت في السنة الخامسة، وأصبحت مكة بالنسبة لهم جحيما لا يطاق، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

كذلك نزلت سورة الكهف وفيها قصة أصحاب الكهف وكيف أنهم تركوا ديارهم فرارا بدينهم، إيماء إليهم بجواز ترك الديار والهجرة إلى أي بلد يقيمون فيه دينهم

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أَصْحَمَة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثني عشر رجلا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيهما: « إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام »

وكان رحيل هؤلاء من مكة تسللا في جنح الظلام . حتى لا تفطن لهم قريش فيغيرون عليهم ويكون حتفهم في الصحراء . خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار.

فقد كانت هجرة المؤمنين إلى الحبشة عل حين غفلة من قريش، فلو علموا بهم لغاروا عليهم وسط الشعب والجبال وقتلوهم.

الظلام ليتأكدوا من الخبر . وكانت هذه تسمى بالهجرة الأولى

ثم حدث أن تعرض الناس لإشاعة أن أهل مكة جميعا قد أسلموا فرجعوا إلى مكة مستخفيين في جنح الظلام، حتى إذا كانوا في الطريق وقد توسط بهم النهر عرفوا كذب الإشاعة فرجع بعضهم إلى أرض الحبشة، بينما واصل الباقون المسير إلى مكة متخفيين عن أعين أهل مكة

"ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلًا إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثماني عشرة أو تسع عشرة امرأة."[1]

٢ . هجرة النبيﷺ إلى المدينة

من لوازم التخفي المطلوب المصحوب بالسرية التامة كانت هجرة النبيﷺ إلى المدينة حيث كانت في وقت اجتمع فيه أهل مكة على قتل النبي ﷺ .

(١) انظر الرحيق المختوم للمباركفوري (ص١٠٧،١٠٨)

المطلب الثالث

اختيار المكان

أولا: اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان لاجتماع الصحابة مع النبي

مما لا شك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلا لما أظهر بعض الصحابة إسلامهم أمام قريش، مثل ما فعله عبد الله بن مسعود من الجهر بالقرآن عند الكعبة، وجهر بعض الصحابة بالشهادتين أما قريش، وقد تعرضوا للأذى الشديد جراء ذلك.

فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرًا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلًا فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام.

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السريةُ والاختفاء، فكان عامة الصحابة يُخْفُون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة

والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام.

أسباب اتخاذ النبي ﷺ دار الأرقم خاصة:

"ولاختيار المكان المناسب أبلغ الأثر في نجاح الاجتماعات واللقاءات الدعوية؛ ولذا كانت أهميته في فترة الدعوة السرية بمكة واضحة؛ حيث كان الاختيار المناسب لمكان اللقاء برسول الله ﷺ هو دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ وذلك لعدة أسباب منها:

١ ـ لأنه كان عَزِباً فلا يشق عليه ذلك، ولا يكون هناك تعرضا لأهله بسوء

٢ ـ كما كان قريباً من الكعبة؛ فكان " لموقعها أسفل جبل الصفا، ميزة أخرى تضاف إلى الميزات الآنفة، فلو كانت في أعلاه، لأصبحت مكشوفة وسهلت مراقبتها " [(١)].ولأن الأرقم لم يكن في ذلك الوقت معروفاً كغيره من أمثال أبي بكر وعثمان وسعد وغيرهم، كما أنه لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ وأصحابه بداره.."[(٢)]

٣ ـ أن الأرقم بن الأرقم – رضي الله عنه – من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفا

(١) في السيرة النبوية قراءة لجانب الحذر والحماية للدكتور إبراهيم علي محمد، الناشر كتاب الأمة (ص٤٠)

(٢) مجلة البيان – عدد ١٣٦ / ص ٢٨) وانظر كتاب السيرة النبوية للصلابي (١٣٨/١)

بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٥ . أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.[1]

٦ . الدار ليس فيها موضع، يمكن أن يستغله أعداء الدعوة، فيطلعوا من خلاله على ما يدور بداخلها، وهذا مما يجعل ما بداخلها بعيدًا عن أعين الأعداء.. يضاف إلى ذلك، أن صاحبها الصحابي (الأرقم)، لا يمكن أن يبوح بسر إعطائه هذه الدار للمؤمنين، هذا بخلاف ما إذا كانت الدار لكافر وكان دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم في السنة السادسة من البعثة أي بعد إعلان الدعوة بثلاث سنوات. ورغم ذلك كان الاجتماع سريا، وقد أتى ثماره وهو تجنب الصدام مع مخالفيه من أهل مكة، والنجاح في تربية جيل فريد يحمل هذه الدعوة ويتحمل أعبائها في سبيل تبليغها للناس.

(١) السيرة النبوية للصلابي (١/١٣٨)

ثانيا: بيعتا العقبة الأولى والثانية

أما الأولى:

قال الزهري وابن عقبة وابن إسحق: (فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم.

فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

فقال لهم: (من أنتم) ؟ قالوا: نفر من الخزرج.

قال: (أمن موالي يهود ؟) قالوا: نعم.

قال: (أفلا تجلسون أكلمكم ؟) قالوا: بلى، من أنت ؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود، كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

ثم قالوا: قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حراس على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغضون متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل.[1]

والثانية:

أخرج أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة.

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر كذا قال . فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب؛ فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به

(١) أنظر سبل الهدى والرشاد (ج٣/ ص١٩٤) وانظر الروض الأنف للسهيلي (٢٤٧/٢) وزاد المعاد لابن القيم (٤٠/٣)

ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله ! نبايعك

قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال: رويدا يا أهل يثرب ! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة فبينوا ذلك، فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة [1]

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٤٤٥٦) وأيضا (١٤٦٥٣) وابن حبان في صحيحه وصححه شعيب الأرناؤوط (٧٠١٢) والحاكم في مستدركه (٤٢٥١) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى

وفي رواية كعب بن مالك رضي الله عنه قال:

وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من واسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا، أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا جابر إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم، وشهد معنا العقبة، وكان نقيبا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو ابن عدى بن نابي إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج . وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها . إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو

(١٦٩٩٧)، (١٨١٩١)، والفاكهي في أخبار مكة (٤ /٢٣١) وأخبار مكة للأزرقي (٢/٢٠٥) وفيه عبد بن عثمان بن خثيم وهو حسن الحديث، لكن للحديث شواهد وطرق أخرى يرتقي بها إلى درجة الصحة.

في عز من قومه ومنعة في بلده، وانه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال: فأخذ البراء ابن معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق لمنعنك مما نمنع منه نساءنا أزرنا فبايعنا رسول الله ﷺ؛ فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحلقة؛ ورثناها كابرا عن كابر.

قال: فاعترض القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ– أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟!

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.... [1]

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨) بسند صحيح عن كعب بن مالك، وانظر عيون الأثر لابن سيد الناس (١ / ص ٢١٦) وأخرجه السهيلي في الروض الأنف (٢ / ص ٢٦٥) قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: حَدّثَنِي مَعْبَدُ بْنُ كَعْبٍ أَنّ أَخَاهُ عَبْدَ اللّهِ بْنَ كَعْبٍ حَدّثَهُ أَنّ أَبَاهُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ حَدّثَهُ. وانظر أيضا سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٠، ٤٤١)

أسباب اختيار المكان في بيعة العقبة

وفي العقبة كان لاختيار المكان أبلغ الأثر في إنجاح هذا الاجتماع التاريخي العظيم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

١- كان مكان اللقاء في الشّعب من منى والشعب هو: ما انفرج بين جبلين أي إن المكان كان محاطاً من ثلاث جهات أو من جهتين على الأقل.

قال كعب: فاجتمعنا في (الشِّعْبِ) ننتظر رسول الله ﷺ.

٢- حُدّد لهم مكان اللقاء مسبقاً، فخرجوا جميعاً صوبه مباشرة، بخلاف ما لو كان اللقاء في مكان آخر ثم كان التحرك منه للمكان المقصود بهذا العدد الضخم!.

٣- كان لدى جميع الأفراد علم تام بالمكان؛ فلم يكن ثَمّ داع لتحركهم جماعات صوبه.

٤- لم يكن المكان المرشح للقاء بعيداً عنهم؛ لأن ذلك ربما أدى إلى كشف اللقاء برمته عن التحرك إليه أو أثناء الرجوع منه؛ بل كان قريباً منهم بجانب الجمرات التي يجاورونها. وتدرك أهمية ذلك عندما نعلم أن الانطلاق للمكان ذاته لا ريبة فيه؛ لأن الرجل والرجلين ربما ذهبا هناك لقضاء الحاجة.. وهو أمر متعارف عليه ما دام في حدود منى.

٥- وعلى الرغم من وجود شعاب أخرى في منى جهة مزدلفة وفي جميع الجهات الأخرى إلا أن اختيار شعب العقبة ينم على مقدرة فائقة في حسن

الاختيار؛ ذلك أنه كان الأقرب للأفراد من جهة منى والأقرب لرسول الله ﷺ من جهة مكة؛ فهو بعيد عن أنظار الحجاج من أهل منى، كما أنه الأبعد عن أنظار المشركين من قريش؛ أضف إلى ذلك المجازفة التي ربما أفسدت الاجتماع لو كان هذا الشِّعب من جهة المزدلفة مثلاً !"[1]

(١) مجلة البيان – عدد ١٣٦ / ص ٢٨)

المطلب الرابع
اختيار الوقت

الوقت عامل مهم في مواجهة الخصم، فاللقاء لابد وأن يكون في وقت يضمن لهم جانب السلامة وهو من موجبات الحيطة والحذر. فلا يواجه أحد خصمه إلا في وقت يكون مناسبا، ولا يدعوا في وقت يكون الخصم فيه يقظا نشيطا متأهبا غضبانا

من أمثلة ذلك:

ـ المثال الأول: بيعة العقبة الثانية، وقد تمت ليلا كما مرة في ذكر كعب بن مالك حيث قال:

"فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا."

إن اختيار هذا الوقت –ليلاً– يؤكد مدى اهتمام النبي ﷺ بالجانب الأمني، وإحاطة تحركاته بالسرية والكتمان، ففي هذا الوقت تقل رقابة قريش، وتهدأ الحركة، وتندر الرؤية، مما يجعل فرصة الانكشاف أمرًا صعبًا.

فلا نقول أن فعل النبي ﷺ ذلك كان لأجل خوفه من قريش على نفسه؛ بل لاعتبارات كثيرة على رأسها: سرعة نجاح الدعوة في خارج مكة، وتهيئة مكانا مناسبا للصحابة يلجأون إليه من عذاب أهل مكة لهم.

. المثال الثاني في عامل الوقت ومدى حرص النبي ﷺ عليه: خروج النبي ﷺ وأبو بكر ليلا:

كان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من مشركي مكة.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى، فمر على منازل ذُهْل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام.[1]

(١) الرحيق المختوم (ص ١٥٢)

المطلب الخامس

عدم التفريق بين أصناف البشر

وهذه قضية أساسية، فإن القاعدة العريضة التي تعتمد عليها أي دعوة في نجاحها هي عدم التفريق بين طبقات المجتمع المختلفة، وإلا صارت الدعوة دعوة إلى العنصرية تحت لون أو جنس، فنتحصر في مكانها أو في عرقها، ولكي تتغلب على الخصم، فلابد من مراعاة مشاعر الآخرين الذين يختلفون عليك بلون أو جنس أو عرق أو مكانة، وهي قوة فعالة نافذة، ورغم أن أصحاب الدعوات الباطلة التي غاية أصحابها هي التحكم في مصير الشعوب ونهب ثرواتهم، والاستعلاء عليهم. إلا أنهم أول شيء يلجأون إليه هو السواد الأعظم من الشعب. ولكن دعوة النبي ﷺ كانت لا تفرق بين جنس وآخر ولا قبيلة وأخرى فالكل سواسية، وهذا هو الذي فعله النبي ﷺ. فقد قال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾[الحجرات: ١٣]

وروى أحمد عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل

لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت ؟

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ ..... الحديث [١]

فلم يفرق النبي ﷺ بين بلال العبد الحبشي وصهيب الرومي وأبو بكر القرشي، كانوا جميعا سواسية مع رسول الله أخوة الإيمان تجمعهم.

(١) أحمد في مسنده (٢٣٤٨٩)والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٩/٦)

المبحث الثالث

من ثمار الدعوة السرية والدروس المستفادة منها

كانت لهذه السرية التي حرص عليها النبي ﷺ وأصحابه ثمارا يانعة عادت بالنفع على الأمة الإسلامية جمعاء فيما بعد، وكان مجمل هذه الثمار:

١ . تجنب وأد الدعوة في مهدها بترك التصادم مع أعدائها وبالصبر كثر الأتباع وانتشر الإسلام

وهذا ما لم يكن في حسبان قريش في بداية الأمر، وبدا الأمر لهم مثل أي إنسان يخرج بفكرة، أو يعتقد بعقيدة، كمثل ما فعل زيد بن عمرو بن نفيل وغيره، ومثل ما فعل ورقة بن نوفل. لكنهم وجدوا أنفسهم أمام دعوة حطمت كل معتقداتهم وقلبت لهم الموازين، وأنهم أمام دعوة للتغيير الشامل في منهج الحياة، سواء كانت الدينية أو الاجتماعية أو الأخلاقية.

٢. اتاحة الفرصة في تربية الجيل الأول تربية قرآنية فردية كان لها الأثر بعد ذلك في نصرة هذا الدين.

فقد "كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[الكهف: ٢٨].

فالآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وأن لا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا، أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها "[1].

٣ . تأكيد أواصر العلاقة بين الأفراد لتكون المسؤولية جماعية فلا تقع على عائق فرد واحد

فاختلاف مشارب الصحابة وعقيدتهم في أصنامهم، وعصبية كل منهم لقبيلته وبيته، وأيضا دخول المملوك معهم، ومن ليس بعربي كل هذا ليس بسهل أن يكون الجميع على قلب رجل واحد، فكانت الفترة السرية بمثابة التحام القلوب، وإذابة الفوارق، وزيادة الألفة، مما ساعد بعد ذلك على دخول جميع فئات المجتمع في هذا الدين.

٤. تأكيد العلاقة بين القائد والأفراد على أساس السمع والطاعة المبنية على الثقة المتناهية.

وذلك بروعة أخلاق النبي ﷺ وحثه على التعاون فيما بينهم، والتخلق بالأخلاق الحسنة وترك السيء منها. كان النبي ﷺ هو القدوة في ذلك مما أدى إلى بث روح التفاني في قلوب الصحابة واستعدادهم للتضحية بأي

(١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن (ص١٧٠). عن كتاب السيرة النبوية للصلابي (١١٨/١)

شيء في هذه الحياة ابتداء من النفس وانتهاء بالعشيرة في سبيل نصرة هذا الدين والدفاع عن سيد المرسلين ﷺ .

فمن السهل أن تقود شعبا، لكن من الصعب أن تجعل الشعب يحبك، وقد اجتاز النبي ﷺ هذا الصعب بجدارة لأن الله تعالى قد أحطه برحمته كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]

٥ . تهيئة الناس في قبول الإسلام تدريجيا بدلا من المفاجأة به

وهذا ما حدث، فما كاد النبي ﷺ يجهر بالدعوة إلا بعد أن انتشر الأمر في أكثر أهل مكة

٦ـ انتشار الدعوة في قريش وربوعها وبين قبائلها أدى إلى زعزعة العصبية القبلية

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا

الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من (تيم)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، والزبير بن العوام من (بني أسد)، ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم)، وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة)، وسعيد بن زيد من (بني عدي)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمَح)، بل إن عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من (هُذيل)، وعتبة بن غزوان من (مازن)، وعبد الله بن قيس من (الأشعريين)، وعمار بن ياسر من (عنس) من مَذْحج، وزيد بن حارثة من (كلب)، والطفيل بن عمرو من (دوس)، وعمرو بن عبسة من (سليم)، وصهيب النمري من (بني النمر بن قاسط)، لقد كان واضحا أن الإسلام لم يكن خاصًّا بمكة[1].

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٣٣). السيرة النبوية للصلابي (١/١٢١)

الفصل الثاني

الحوار

تمهيد

الحوار لغة الأقوياء ولا يتركه إلا ضعفاء الناس، فهو من أكبر الوسائل لتجنب الاصطدام مع المخالف

فلقد كانت دعوة الأنبياء حوارات وجدال وحجاج، وقد أيدوا بالمعجزات لدحض جهالات الأغبياء، وكسر كبرياء الجبابرة. فجادل نوح قومه فاستهزءوا به، وحاج إبراهيم قومه فسخروا منه، وحاور موسى بني إسرائيل فاستحبوا العمى على النور، وكان المكر هو الوسيلة في بني إسرائيل على عيسى فرفعه الله إليه. ونجاه من بين أيديهم.

ثم كان خاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، محمد النبي الأمين ﷺ . فحاور وجادل وحاج وباهل ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة. اللين درعه، والصبر سلاحه، والحوار الهادئ حرابه، وقوة الحجة سهامه، فأزهق كل باطل وأدمغه، وأخرس ألسنة الفصاحة بمنطقه، فكان آخر رسول لآخر أمة من الأمم وأكبرها وأوسطها وأخيرها. فمن عاند وكابر فليس له إلا حجة السيف والسنان، بعد الحوار والجدال باللسان. وهكذا مضى محمد ﷺ يقاوم سلطان العقل بالحجة والبيان يستنطق به كل عاقل لبيب، ويُسْكتُ به كل ماكر لئيم. فلم يكن هناك مجال للغبي المتغطرس إلا قوة الردع والسلاح، فيلوح به ويهدد في وجه كل من استجاب لهذا المنطق ولاح، يخفي ضعفه وراء قوة بدنه، وخواره أما جعجعة صوته، وهكذا هي سنة الماضين بعد أن

يعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، فهذا الفصيح اللئيم، الذي استخف قومه بمنطقه وبراعته في الخطاب ماذا فعل مع موسى النبي الكريم حين دار بينهما الحوار، وطلب فرعون تعريفه بربه، وانقطعت حجته، فقال في غضب وتكبر وغطرسة: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾[الشعراء:٢٩]. وهكذا كل جبار عنيد، وكل متغطرس جهول.

أهل المروءة والعقل؛ هم أهل تواضع وحكمة، لا يألون جهدا في الانقياد لما تقبله عقولهم الحكيمة، غير محكمين شهواتهم في عقولهم، يستجيبون للحق أينما كان، وينصاعون له دون حرج أو هوان، كالجمل الأنف إذا قيد انقاد، وإذا نيخ استناخ، عاره ترك الاستجابة لنداء العقل والحكمة، وندمه لتفويته نصرة صاحب الحق.

وقد نشأ النبي ﷺ في بيئة فيها كل الأشكال، فيها القوي المتغطرس، والقوي العاقل، والضعيف الحكيم، والضعيف الغبي، والضعيف البدن القوي القلب، فاستجاب له أهل الحكمة والعقل، وعاند أهل الغباء والجهل. وكانت الغلبة في النهاية لرسول الله وأصحابه، وهذا جانب قد افتقدناه في زماننا أو كدنا نفتقده، فأصبح الحوار مع المخالف مهانة عظيمة، وسبة كبيرة، وإن كان الكثير من هؤلاء من يعترف به أنه حق مبين لكن قلبه قد انطوى على الحقد الدفين، إذا كان في الحوار مبتغاه وهواه؛ أسرع إليه ولبى نداه، وإن فيه كشف عواره وبيان جهله، اعتزله وشنع عن مناديه.

وما أحوجنا إلى الحوار في أيامنا هذه، حيث صار البون بين أهل الحق شاسعا، وتنافرت قلوبهم عن غير شيء، كل يدعي الحق ويهرب من مناداة الحوار، كل يدعي الصدق في قوله، ويرفض إقامة البينات والسماع لأخيه. احكتر الدين لنفسه وحزبه، من خالفه عدو مبين لدود، وإن كان من أهل الفضل والمكانة، ومن وافقه حبيب وصديق، ولو كان من أهل الجهل والوقاحة، نبتت نابتة وراءهم شعارهم الشتم والسب والوقاحة، ورمي الناس بالعماية والضلالة، لا هم لهم إلا فلان ضال، وفلان مرجئ وفلان خوارج وفلان كذا، وفلان كذا، من وراء جدر يقاتلون، ويحث ثوب العلماء يسترون، وهم لهم مخالفون مباينون. وقع الكثير من أهل العلم والفضل في براثن هؤلاء والتفت عليهم شباكهم، فلا يستطيعون الفرار، لأنه يخافون من هذه الحثالة أن تقول فيهم مثل ما قلت في غيره، وتفضح به مثلما فضحت بغيره، بباطل أو حق يراد به باطل، يسعون لكشف عورات الناس وفضحهم بالهمز والمقال. يقلبون الحق باطلا، والباطل حقا، يستنطقون العلماء وفق ما يهوون، ويحرفون الكلام عن مواضعه كما يريدون. وقد وجدوا ضالتهم الشبكة العنكبوتية (الانترنت)، أسماء وأوصاف وألقاب، يتشكلون كالحيات، ويأتون في كل لون. عند المواجهة هم كالسراب، لا ترى منهم جواد، ولا فارس إلا حمار ينفر الناس من صوته، وهو يلقى التهم جزافا. نسأل الله تعالى أن ينجينا من شرورهم، وأن يرفع غمتهم عنا، فهم لأعداء الإسلام أعوانا،

ويدا وإن كانوا لا يعرفون. فإسقاط الرموز، أو رفعه فوق منزلته، خطة يهودية محكمة، على مر التاريخ يلعبون بها، ولا يفترون، إذا فشلوا مرات، نجحوا مرة، وكانت هي المرة !!.

فالحوار لغة الأقوياء الحكماء، والفظاظة والجلافة لغة الضعفاء الأغبياء المتكبرين.

فهيا بنا نقيم أواصر الحوار بيننا، ونهدم تصدير الآراء والرمي بالعظائم ونرميها وراء ظهورنا، لنقيم صرح أمتنا العظيمة، ونستعيد الألفة إلى قلوبنا، ونرجع المهابة في صدور أعداءنا بعدما وقعت في قلوبنا. وليس أعظم من الرجوع إلى سيرة أفضل البشر ﷺ لنتعلم منها كيف كان يعامل غير المسلم ويحاوره، وكيف كان يعامل المسلم الشارد ويلاطفه.

ولذلك أردت أن أجلي حقيقة كانت عن الناس غائبة، وإن كانت هي كالشمس في نهارنا، والبدر في ليلنا. ولكن الغشاوة كانت على قلوبنا وأعيننا. وهي حوار النبي ﷺ مع المخالف وكيف نستفيد منه في حياتنا ودعوتنا ونشر أمتنا.

المبحث الأول

معنى الحوار وشروط وأهدافه على وجه الاختصار[١]

أولا: معنى الحوار

١ . لغة:

المحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب

والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.[٢]

فهي من المجاوبة، والرجوع في الكلام المنطقي الذي يصغي إليه العقل.

٢ . اصطلاحا:

هو مراجعة للكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة[٣]

فهو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب [٤]

---

(١)أنظر تفصيل ذلك في كتابنا : الحوار في ضوء السيرة النبوية

(٢) لسان العرب لابن منظور (ج ٤ / ص ٢١٧) بتصرف واختصار. ط: دار صادر. بيروت: الطبعة الأولى

(٣) الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه: د: أحمد سيف الدين التركستاني، ملف (ورد) من موقع الإسلام.

(٤) في أصول الحوار: إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي (ص١١). الطبعة الثالثة عام١٤٠٨

وقريب من الحوار: المجادلة إذا كانت بالتي هي أحسن، قال جل شأنه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

وقال: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦].

فالجدل الممدوح ورد في القرآن مقيداً بقوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، والمذموم ورد تسعاً وعشرين مرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[الحج: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[الأنعام:١٢١].

ثانيا: شروط الحوار الناجح

لكي يؤتي الحوار ثماره مع المحاور والطرف الآخر فلابد له من شروط تتوفر فيه، وهذه الشروط ليست منصوص عليها بل هي اجتهادية وردت من خلال الكتاب والسنة منها:

١ . النية الصادقة

فإذا قلنا أن الحوار مع المخالف هو لإحقاق حق وأبطال باطل، فهو من جنس الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا عمل يشترط فيه النية الصادقة.

كما جاء في الحديث المتفق عليه من حديث عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما

نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

وصاحب النية الصادقة يخلى حتما على نصرة نفسه ولو بالباطل، وعلى تجنب المماراة التي لا فائدة فيها.

٢ . اللين والرفق مع المحاور

فإن الغاية من الحوار: إقناع الخصم بالحق الذي يدين به المحاور، ولا يمكن أن يقبل إنسان قد ركب فيه العناد والعزة بالإثم القول الفظ الغليظ ولو كان حقا، بل هو وسيلة لمثل المجادلون بالباطل لاتخاذها ضد صاحب الحق.

ولذلك قال الله تعالى لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه:٤٤]

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥]

قال ابن كثير:

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين

بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٤][1]

وقال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٦]

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لِمَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ

(١) تفسير ابن كثير – (ج ٤ / ص ٦١٣)

شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥].

قال جابر: أمرْنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: أهل الحرب، وَمَنِ امتنع منهم عن أداء الجزية.(١)

وقد حث النبي ﷺ على الرفق في أكثر من حديث

فقد روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ ».

قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟

قَالَ:« قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ »(٢).

وروى أيضا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هِلاَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الْخَيْرَ أَوْ مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير – (ج ٦ / ص ٢٨٣)

(٢) مسلم (٥٧٨٤)

(٣) مسلم (٦٧٦٥)

وروى أيضا عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِى عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِى عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِى عَلَى مَا سِوَاهُ »(١).

وسوف يأتي رفق النبي ﷺ في حواراته مع الناس.

٣ . الإقرار بالخلاف

فالحوار عادة بين اثنين مختلفين في قضية ما، وكلا الطرفين يعتقد في رأيه الحق والصواب، وينتصر له بما عنده من حجج وبراهين، فلابد وأن يكون المحاور مقرا بالخلاف، حتى يستطيع تقريب وجهات النظر، والوقوف عند نقطة وسط تقرب وجهات النظر بين الرأيين، حتى إذا تفرق كل منهما تفرق عن رضا وقناعة بما خرج به من هذه المحاورة.

أما عدم الإقرار بالخلاف وتعنت كل واحد من الطرفين وتعديه وظلمه لخصمه، فهذا جدال لا فائدة فيه.

وفي القرآن تنبيه على ذلك فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤]

(١) مسلم (٦٧٦٦)

ففي هذه الآية إقرار بالخلاف عند المجادلة والمناقشة، ودعوة إلى الاتفاق على كلمة واحدة، وهي توحيد عبادة الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[يونس: ١٩]

ثم أرشد إلى معالجة الأمر فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل: ٦٤]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠]

٤ . العلم

فإن الحوار هو وسيلة لإحقاق حق وإبطال باطل، فلا يكون ذلك إلا عن علم، ولذلك لا يصلح التقليد في المحاورة، بل لابد من فهم كل من المتحاورين حجته والتدليل عليها بما يراه من حجج نقلية أو حجج عقلية أو حسية.

قال تعالى ذاما الجدال بغير علم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾[الحج: ٣]

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[الحج: ٨]

قال ابن كثير:

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. (١)

ومن يجادل عن الله فلابد وأن يقف على علم وإلا قال على الله تعالى ما لم يعلم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]

وقد حذر الله تبارك وتعالى من القول على الله بغير علم فقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]

٥ . الأمانة في النقل

والأمانة في النقل على وجهين:

الوجه الأول: من جهة ذكر أدلة الخصم

فإذا نقل المحاور عن خصمه دليلا أو قولا فلابد له من التثبت في النقل لئلا يقول عليه ما لم يقل، وهذا من الظلم الذي حرمه الله تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير – (ج ٥ / ص ٣٩٩)

فمن ناظر أهل الكتاب وأراد أن ينتقد كلامهم فلابد وأن ينقله نقلا صحيحا من كتبهم ولا يعتمد على كتب الردود من جهة مقابلة. فربما من نقل كان ظالما في نقله، أو لم يفهم ما ينقله فنقل ما يوافق هواه وليس ما يوافق السياق. فإن السقوط في مثل ذلك إحقاق للباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]

والوجه الثاني: من جهة المحاور في استدلاله

فلابد وأن يتحر أدلته التي ينقلها من الكتاب والسنة، ويكون أمينا في النقل دون تحريف أو تبديل.

فكثير من الناس من يلوي أعناق النصوص الشرعية حتى توافق هواه لينتصر بها على خصمه، أو يحاول بذلك الخروج من خطأه بحفظ ماء الوجه.

ولما حاور النبي ﷺ كثيرا من أهل مكة، لم يستخدم أساليب الجدال التي لا تجدي، بل كان يتلو عليهم آي الكتاب وينظر منهم ما يقولون، فلم يكن أيضا هم يجادلون النبي ﷺ بل كانوا يقدرون الكلمات ويعلمون أنها ليست

من لاكم بشر حتى قال أحدهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق.

ثالثا: أهداف الحوار

دعوة الأنبياء قامت على الحوار من أجل تبليغها إلى الناس وانقطاع حجتهم كما قال تعالى:﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[النساء: ١٦٥]

فكان للحوار أهداف علمية وروحية واجتماعية وغيرها وهي على النحو التالي:

١ – إقامة الحجة على المخالف ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي. والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.

قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر:٤٣]

٢ – الدعوة للحق وترك الباطل، فالحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥].

فإذا فقد الحوار الحكمة والموعظة الحسنة فقد فَقَدَ قيمته ومضمونه، وصار جدلا مذموما أو مراءً عقيما لا يؤتي ثماره.

٣ – تقريب وجهات النظر بين المختلفين، فمن ثمرات الحوار تضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر بين المختلفين، والاجتهاد في إيجاد حل وسط يرضي الأطراف ويمنع شر التباغض والتناحر والتحاسد التي تؤدي إلى الفرقة والشقاق

٤ – كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]. وهذا مطلوب في عصرنا عندما نحاور غير المسلمين، ففيه إزالة الغمامة من على الأعين والغشاوة من على القلوب التي وضعها أعداء الإسلام في تشويه هذا الدين.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى:١٦]

٥ . من أهداف الحوار سد الطريق أمام أصحاب الأغراض الدنيئة أن يسعوا بالفرقة والشقاق في الصف الواحد، أو يوقعوا أهل الحق في فتنة تضر بدينهم ودنياهم عن طريق الوشاية.

٦ . من أهداف الحوار تمييز أهل الحق من أهل الباطل، ولذلك كان السلف يحاورون أهل الباطل من كل الملل لإظهار الحق.

٧ . من أهداف الحوار توحيد الصف والتعاضد والتناصر بعد الخلاف والفرقة والتقاتل.

٨ . ومن أهداف الحوار إنصاف المظلوم وفضح الظالم الذي يدعي أنه مظلوم وأن الحق معه.

٩ . من أهداف الحوار إبراز الأفكار والقيم التي من شأنها توفير مناخ صداقةٍ وسلامٍ، واستبعاد جميع مظاهر العداء في المواقف وفي التعبير عن الآراء.

١٠ . ومن أهداف الحوار النفع المتبادل لجميع الأمم التي تمارسه، ويسعى في جهد مشترك مع الأطراف جميعاً، للقيام بعملية حضارية كبرى، هي تصحيح المفاهيم الخاطئة التي تسود المجتمعات

١١ . ومن أهداف الحوار تمكين كل إنسان من اكتساب المعرفة والمشاركة في التقدم العلمي الذي يحرز في جميع أنحاء العالم والانتفاع بثماره، والإسهام من جانبه في إثراء الحياة الثقافية.

المبحث الثاني

نماذج من حوارات النبي ﷺ مع المخالفين له في العهد المكي

عندما ننظر كيف تعامل النبيﷺ مع أهل مكة وهم يقابلون دعوته بكل ما أوتوا من قوة وبطش، لم يغلق النبي ﷺ باب الحوار أمام هؤلاء القوم، ولم يصدر عليهم أحكام الموت والهجر باعتبار أنهم قوم هلكى؛ بل رحب به النبيﷺ وتعامل معهم بكل شروط المحاور الناجح، فكانت النتيجة: زيادة من يدخل في دين الله تعالى وتضاءل قوة قريش أمام المد الإسلامي، وقد وقعت جملة حوارات منها:

أولا: النبي ﷺ مع عتبة بن ربيعة:

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيدا – قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه شاء ويكف عنا ؟

ـ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون . فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم،

وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه

قال: أقد فرغت يا أبا الوليد " ؟

قال: نعم

قال: " فاسمع مني "

قال: أفعل

قَالَ: بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾[فُصّلَتْ ١ - ٥]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه

خلف ظهره معتمدا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال: بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم..[1]

وقال ابن كثير:

وقال الإمام عبد بن حميد في مسنده حدثني أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر عن الاجلح – وهو ابن عبد الله الكندي – عن الذيال بن حرملة الاسدي عن جابر بن عبد الله.

---

(١) انظر الروض الآنف للسهيلي (٤٦/٢)، وسيرة ابن هشام (٢٩٣/١)، والسيرة لابن إسحاق (ص٩٢)، وقد حسنه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص١٥٩) وذكره في فقه السيرة (ص ١٠٦)، وقال: حسن

قال: اجتمع قريش يوما فقالوا أنظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة.

فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله فسكت رسول الله ﷺ.

فقال: أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ.

قال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا.

والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى: أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان إنما بك الباه فأختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا.

فقال رسول الله ﷺ: «فرغت ؟ » قال نعم! فقال رسول الله ﷺ: «بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾[فصلت: ١ - ٣]».

فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا ؟

قال: لا، فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ؟

قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته.

قالوا: فهل أجابك ؟

فقال: نعم ! ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟

قال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وقد رواه البيهقي وغيره عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوري عن يحيى بن معين عن محمد بن فضيل عن الأجلح به. وفيه كلام

وزاد: وإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسا ما بقيت وعنده أنه لما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[فصلت: ١٣] أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه فأتوه.

فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد.

فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمدا أبدا.

وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا، ولكني أتيته – وقص عليهم القصة – فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة، قرأ: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

ثم قال البيهقي: عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن محمد بن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد مولى بني هاشم عن محمد بن كعب قال حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدا حليما. قال – ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد –: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ويكف عنا.

قالوا: بلى يا أبا الوليد ! فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فيما قال له عتبة وفيما عرض على رسول الله ﷺمن المال والملك وغير ذلك.

وقال ابن إسحاق: فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد ! فقم إليه وكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم.

فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال فقال له رسول الله ﷺ: " يا أبا الوليد اسمع ".

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت نريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه – أو كما قال له – حتى إذا فرغ عتبة.

قال له النبي ﷺ: " أفرغت يا أبا الوليد ؟ " قال نعم ! قال اسمع مني، قال افعل ! فقال رسول الله ﷺ: ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾[فصلت: ١ - ٣]. فمضى رسول الله ﷺ يقرأها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره

معتمدا عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال: " سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت.

قال: "فأنت وذاك" ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلسوا إليه قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي.

خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.(١)

فإن الذي دعا صناديد قريش في دعوة النبي ﷺ إلى أن يكون ملكا عليهم أو يجمعوا لهم الأموال أو يكون صاحب الرأي والمشورة فيه إلا لتحيرهم في ثنائه عن دعوته وتبليغ رسالة الله تعالى.

فإن الوليد لم يذم النبي ﷺ مباشرة ولا صرح بذمه؛ وإنما استعمل من الألفاظ التي توصل مفهوما للسامع أنهم مظلومين وأنه الظالم بفعله وأنه هو المتعدي

(١) البداية والنهاية لابن كثير – (ج ٣ / ص ٧٩ . ٨٢) وقد ذكرنا كل ما ذكره ابن كثير للاطمئنان على ثبوت القصة بطرقها

عليهم لما قال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم.

فبدأ بالمدح وانتهى بالذم. وهكذا يفعل أعداء الإسلام في كل عصر مع المسلمين وأصحاب المكانة. فهم ينفرون منهم الناس فيقولون مثلا: هم علماء أو عباد أو صالحين ولكن !! يتشددون ويغالون وا وا، وهذا ليس من الإسلام؛ فالإسلام دين يسر وسماحة.

هكذا يستطيع الشيطان الخبيث أن يستخدم من الشرع من يهدم به القائمين عليه وينفر الناس منهم وبالتالي من الشرع.

المستفاد من حوار النبيﷺ مع عتبة بن ربيعة:

عند النظر إلى هذا الحوار نجد فيه كثير من الآداب التي يجب على المسلم التحلي بها عند حواره مع مخالفه منها:

١ ـ حسن الاستماع حتى يفرغ المخالف من كلامه نهائيا، فلربما أجمل كلامه في بدايته وسوف يفصل في نهايته، أو ربما لم يصرح بمراده في بداية الكلام، وسيكون ذلك في آخره، فحسن الاستماع يسهل كثيرا من الرد على المخالف وتقريب وجهات النظر.

وهذا واضح في إنصات النبي لعتبة حتى فرغ، ثم قال له:« أفرغت يا أبا الوليد؟»

وهذا دلالة على عدم مقاطعة النبي لعتبة في حديثه.

٢. حسن الأدب في المخاطبة ولو كان المتحدث كافرا، فحسن الأدب مخجلة للخصم عن أن يتطاول بالكلام، أو يعاند في قبول الرد.

ولذلك قال النبي لعتبة: قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعُ.

وكنهاه بذلك علامة على الرفق به ولين الجانب له. وكانت العرب تحب المناداة بالكنية فجاءه النبي من الجانب الذي يحبه حتى ولو علم النبي أن لن يؤوب ولن يرجع، لأن ذلك أصل في الدعوة إلى الله فقد أمر الله موسى وهارون باللين مع وقومه رغم أنه لن يؤوب ولن يتوب. وهذا أدب قد فقده كثير من الشباب اليوم، وخاصة ممن ينتسب إلى طلب العلم، فيعامل خصمه أو مخالفه معاملة ما عامل بها النبي الكفار، تحت حجة: أن هؤلاء مبتدعة أو فسقة أو ما أشبه ذلك دون ضوابط في تحقيق المصلحة أو دفع المفسدة المترتبة على القول أو الفعل.

٣ . حسن الاستماع وحسن الكلام دلالة على بشاشة الوجه، وهذا مما يؤلف قلب المخالف، ويهون من ثورته على الإنسان، ويهدئ من حدته.

٤ . وكل هذه الثلاثة خصال تمنع شر الخصم أن كان يريد إضمار الشر قبل أن يتكلم، فهو باب من أبواب درأ المفسدة وجلب المصلحة.

٥ ـ وبرغم أن عتبة بدأ كلامه لينا إلا أنه ضمنه سبا عنيفا للنبي ﷺ وتعييبا له عندما قال: وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم.

٦ ـ النبي لم يجادله في كلامه؛ بل تلا عليه من آيات الله ما يعرف النبي ﷺ أن لها وقع على قلب هذا الرجل. وترك جانب المماراة وفي هذا يقول ابن الوزير:

ألم تر أنّ المصطفى يوم جاءه أبو الوليد بقول الأحوذيّ المجادل
تجنّب منهاج المرا وتلا له من السَّجدة الآيات ذات الفواصل
ولم يجعل القرآن غير مصدّق إذا لم تقدمه دروس الأوائل
كذا فعل الطّيّار يوم خطابه لأصحمة بين الخصوم المقاول
تلا لهم آي الكتاب فأيقنوا بها بشهادات الدّموع الهواطل
إلى ذاك صار الأذكياء من الورى وعادوا إليه بعد بُعد المراحل[1]

وقال أبوعبد الرحمن عبد الرازق الغول:

هل رأيتم مثل عتبة عاقلا ضيع لبه
يمم البيت بمكة باغيا غالب ربه
يا محمد أنت منا لك فينا خير نسبه
أنت سبَّيت سواعا هبلا داومت سبَّه

(١) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (١٤٧/٢)

وتنقصت حلوما فيك عن قومك رغبه
إن ترم ملكا تجده فالمعالي بك أشبه
فاقبل التسويد أولا فالتمس علم الأطبه[١]

ثانيا: حوار بين أبي جهل والنبي ﷺ:

قال يونس بن بكير: عن هشام بن سعيد، عن زيد بن أسلم، عن المغيرة بن شعبة قال: إنّ أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أنّي أمشي أنا وأبو جهل، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم هلّم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله

فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سبّ آلهتنا، هل تريد إلاّ أن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لو أنّي أعلم أن ما تقول حق ما اتّبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إنّ لأعلم أنّ ما يقول حق، ولكن بنو قصيّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا النّدوة، قلنا، نعم، ثم قالوا: فينا اللّواء، فقلنا: نعم، وقالوا: فينا السّقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منّا نبيّ، والله لا أفعل.[٢]

فهذا هو رسول الله ﷺ لم يعنف أبا جهل ولم يقسوا عليه بل دعاه باللين والرفق والحوار الهادئ والعرض الطيب، ورغم أن أبا جهل قابله بعنف وشدة،

(١) فن الحوار لفيصل بن عبده قائد حاشدي (ص٢٨،٢٩). ط. دار الإيمان الإسكندرية مصر
(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي – (ج ١ / ص ٣٩) وقد ذكره الألباني في صحيح السيرة (ص١٦٢)

إلا أن رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه ولم تأخذه العزة بالإثم كما يفعل الكثير اليوم سواء كان من الدعاة أو من شباب الدعوة. فنحن بحق نفتقد هذه التربية العظيمة في ضبط النفس، وتحملها مثل هذه الصواعق النفسية التي تهدم كيان الإنسان من الداخل أشد من الصواعق البدنية.

ثالثا: حوار النبي ﷺ مع أبي طالب

كان النبي ﷺ مع عمه أبي طالب عطوفا رقيقا يقدر موقفه من نصرته وحمايته من بطش مكة، وقد طمع النبي ﷺ في إسلامه، فكان دائما ما يدعوه إلى الحق، وما كان من أبي طالب إلا السكوت حتى جاءه الموت فجلس النبي ﷺ عند رأسه يدعوه بأن ينطق بكلمة التوحيد ليشهد له بها النبي ﷺ عند ربه ويشفع لعمه بها. فكان هذا الحوار الذي أخرجه البخاري ومسلم: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية بن المغيرة قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾[التوبة: ١١٣] الآية[1]

رابعا: ضماد بن ثعلبة مع رسول الله ﷺ

لما سمع ضماد بن ثعلبة الأزدي بالنبي ﷺ واتهام قريش له بأنه مجنون، وكان الرجل راقيا فقد روى مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِى مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ لَوْ أَنِّى رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِى مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِى عَلَى يَدِى مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِىَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ».

قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَىَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ.

فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺثَلاَثَ مَرَّاتٍ —

قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ —

قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ

قَالَ: فَبَايَعَهُ.

---

(١) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٤١)

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وَعَلَى قَوْمِكَ ».

قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي

قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: «هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئًا ؟»

فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً.

فَقَالَ: «رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ»(١).

لم يحاوره النبي ﷺ ويجادله في قضية أنه راق أو غير راق، أو جاء مستكشفا. فعرض على النبي ﷺ أن يرقيه فما كان من النبي ﷺ إلا أن ذكر له خطبة الحاجة فقط. وما فيها من توحيد الله تعالى بالاستعانة به والثناء عليه، وإثبات الضلال والهداية بيديه سبحانه وليس بيد أحد من خلقه مع الاستغفار والتسبيح. فما كان من ضماد وهو رجل يريد الحق إلا أن آمن بالله ورسوله.

ويستفاد من هذا الحوار:

أ ـ ليس كل كلام ينفع لكل شخص، بل كل إنسان يروق له كلام معين، فكلام الله تعالى كله هدى، ولكن اختيار الآيات بحسب طبيعة الشخص المقابل ونفسيته ومدى قبوله للحق.

---

(١) مسلم (٢٠٤٥)

فمن الناس من تنفع معه آيات الوعيد، ومنه من تنفع معه آيات الوعد، ومنهم من تنفع معه آيات الخلق والإعجاز، ومنه من تنفع معه آيات القص والأخبار، ومنه من تنفع معه آيات معرفة الله وأسمائه وصفاته، ومنه من تنفع معه بعض آيات الأحكام وهكذا.

والمحاور الناجح هو الذي يختار المناسب لمحاوره. ولذلك لم ينفع مع عتبة بن ربيعة إلا أن تلا عليه النبي ﷺ من سورة فصلت، وكان من الممكن أن يقرأ عليه من الفاتحة أو الأعراف أو غيرها من السور المكية، لكن رأى النبي ﷺ أنه لا يصلح مع عتبة إلا هذه السورة لإفحامه وقطع حجته وإثبات أن هذا القرآن ليس بقول كاهن ولا ساحر وشاعر وليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند خالق محمد ﷺ.

وكذلك من الناس من ينفع معه كلام رسول الله ﷺ على حسب الشخصية التي المحاورة كما فعل لنبي ﷺ هنا مع ضماد بن ثعلبة

ب ـ تجنب الجدال مع المتعالم بقدر الإمكان لأنه لا يفيد، ولكن بطرح الحق عليه وتركه لاختياره وله أن يختار، لأن الجدال قد يزيد المحاور عنادا وبغيا، وتركه قد يفيده في التفكير مع نفسه والرجوع للحق.

ج ـ اللين والرفق في التعامل مع المخالف وخاصة إذا كان يجهل من أمامه، وطرح عليه العلم الذي لم يكن يعرفه ليدرك قيمة نفسه أمام محاوره. مع تجنب الفظاظة والإعراض.

د ـ أخفق مسعى قريش في الكيد بالنبي ﷺ من جهة اتهامه بالكهانة والعرافة وأن به سحر وزهق باطلهم بإسلام من له خبرة ودراية بهذا الشأن.

خامسا: حوار جعفر بن أبي طالب مع النجاشي ملك الحبشة

عز على المشركين أن يجد المهاجرون إلى الحبشة مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة ـ قبل أن يسلما ـ وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، حضرا إلى النجاشي، وقدما له الهديا ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا. فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا

ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب . وكان هو المتكلم عن المسلمين: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه على، فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كهيعص﴾[مريم:١] فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون . يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه . فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول. فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نَخَرْتُم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي . والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة . من سَبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْرًا من ذهب وإني آذيت رجلًا منكم . والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.[١]

(١) الرحيق المختوم – (ص ١٠٨، ١٠٩)

المبحث الثالث

من ثمرات حوارات النبي ﷺ

إذا لم يكن من ثمرات الحوار الصحيح إلا إسكات الخصم وترك المواجهة بالعلم فكفى بذلك ثمرة ولكن للحوار ثمرات وثمرات منها:

١ ـ قطع حجة الخصم وإثبات الحق بأقصر عبارة كما فعل النبي ﷺ مع عتبة بن ربيعة فقد حاول عتبة أن ينتصر على رسول الله ﷺ ظناً منه أن أسئلته تلك كفيلة بأن تضيق الخناق حول رسول الله ﷺ، ولكن رسول الله المؤيد من السماء معه أقوى دليل وأعظم حجة وأبين برهان على صدق دعواه ألا وهو القرآن الكريم فبمجرد أن قرأ رسول الله ﷺ سورة فصلت على عتبة حتى ذهل عتبة، وفقد صوابه وقفل راجعاً إلى أهله معلناً بهته وهزيمته أمام رسول الله ﷺ وحجته القوية القرآن الكريم

٢ ـ الحوار أصل من أصول الدعوة (أي دعوة) فإذا كان بصورة صحيحة أتى ثماره وهذا ما حدث مع رسول الله ﷺ ومع الصحابة في حيرة أهل مكة وضعفهم أمام الحجج والبراهين التي أثبتها لهم رسول الله ﷺ على صدق دعواه.

الفصل الثالث

اعتزال المنكرات وترك المكان للمخالف

إذا تحقق من وجوده ضرر

المبحث الأول

اعتزال منكرات المخالف وعدم المخالطة

إن فقد الإحساس من كثرة المساس. مثل يطلق على من جاور منكرا وتعود على مجاورته، فلابد وأن يفقد غيرته على تغييره. وكم من منكرات في عصرنا كثرت وتفاقمت وكان السبب فيها بعض أهل الخير. ولذلك قبل الكلام مع المخالف فلابد من ترك منكراته واعتزالها، وهذا أنجع في ردعه وسهولة الحوار معه. وإذا أصر على ما هو عليه فليس إلا البعد عنه بحسب المصلحة المرجوة ودفع المفسدة المتحققة.

وقد كان الأنبياء عليهم السلام لا يخالطون قومهم في منكراتهم، بل يعتزلون ما يفعلونه، حتى تتميز المفاهيم ويتضح الحق، فلو خالط المسلم الصالح أهل المنكر بدافع أنهم سوف يتركون منكرهم بعد ذلك لو خالطهم فيه، فهذا ما لا سبيل إليه وقد اتخذ وسيلة غير شرعية في هداية للناس للحق.

فنرى موقفا لإبراهيم عليه السلام حين تحاور مع أبيه كما جاء في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءِنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾[مريم: ٤١ ـ ٥٠]

وإبراهيم أبو الأنبياء وهو قدوة الموحدين وقد أمرنا الله تبارك وتعالى باتباع ملته فقال تعالى في سورة آل عمران:﴿ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾[آل عمران: ٩٥]

والنبي ﷺ لم يكن يشارك المشركين في شيء من ملهياتهم الدنيوية لا قبل البعثة ولا بعد البعثة، لأن في اعتزالهم تأكيدا لهم أنه ﷺ لم يكن يريد دنياهم، وإنما يريد هدايتهم إلى طريق الحق.

المبحث الثاني

ترك المكان للمخالف إذا تحقق من وجوده ضرر

فإن المخالف دائما إن كان في موقف ضعف من مجابهة خصمه فإنه يلجأ إلى القوة والعنف إذا توفرت له في ردع خصمه بالباطل الذي معه.

وإذا كانت مجابهته تؤدي إلى إبطال الحق ودحر أهله بالكلية، فالصبر على آذاه واجب شرعي، وإذا كان الصبر لا يردعه عن العدول عن موقفه، وكان في ترك المكان له نصرة للحق وإزهاقا للباطل فهنا يلجأ الإنسان إلى ترك الديار له.

ولذلك نرى أن كثيرا من الأنبياء تركوا قومهم التماسا للنصرة من خارجهم وبعدا عن مجابهتم وخاصة إذا كانت غير متكافئة.

فنرى إبراهيم عليه السلام يهاجر إلى ربه

كما قال الله تعالى عنه في سورة الصافات:

﴿وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ

أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾[الصافات: ٨٣ ـ ١٠٠]

وكذلك فعل موسى عليه السلام كما جاء في سورة القصص:

﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾[القصص: ٢٠، ٢١]

وقال موسى لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء:٢١]

وهذا ما قرره النبي ﷺ حين اتخذ أهل مكة العنف والقهر والظلم، ووصل الأمر إلى حد التآمر على القتل، ولا مناص إلا بالهجرة.

فإذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة وأمرهم بأرض الحبشة رغم بعدها عن الجزيرة، ورغم أن حاكمها كان نصرانيا. لكن كانت العلة: أنه رجل لا يظلم عنده أحد. فيتحقق الأمان للمؤمنين بجواره.

وبهذا يتحقق للمسلمين القوة على عدوهم.

قال أحمد إبراهيم الشريف في كتابه " مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول":

الهجرة في سبيل الدعوة:

ولما رأى النبي ﷺ الأذى يشتد بأصحابه، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة: "فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه" فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام [(١)].

وفي هجرة المسلمين إلى الحبشة لا بد بعرض سؤال: لماذا فكر النبي ﷺ في الحبشة ولم يفكر في غيرها من أقاليم الجزيرة العربية؟ الواقع أن تفكير النبي ﷺ في الحبشة ينطوي على معرفة كبيرة بالظروف وإلمام تام بأحوال الجزيرة العربية، كما أن فيه لفتة سياسية من جانب النبي ﷺ موجهة إلى قريش.

لم يلجأ المهاجرون إلى قوم من العرب في الجزيرة العربية؛ لأن القبائل العربية كانت مرتبطة بقريش ارتباطًا تجاريًّا ودينيًّا قويًّا، وكان لبعضها محالفات وعقود مع قريش؛ وهي لذلك حريصة على حسن العلاقة مع قريش حرصها على مصالحها المادية؛ فلم تكن لذلك تستطيع إيواء الخارجين عليها، ثم هي تؤمن بزعامة قريش وتخضع لتشريعها الديني، وقد تجلى موقف القبائل واضحًا بعد هجرة النبي ﷺإلى يثرب، فقد اتخذت جانب قريش في صراعها ضد يثرب وتحرشت بالمسلمين وحاربتهم في صفوف قريش.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٣).

أما اليمن فكانت الأحوال فيها غير مستقرة، والخلافات الداخلية تمزقها إلى جانب خضوعها للنفوذ الفارسي، ووقوعها في المجال التصارع الدولي الذي تعدى السياسة إلى الدين، فكان التنافس شديدًا بين المسيحية واليهودية فيها، وهي بذلك غير صالحة لأن يجد فيها المهاجرون المأوى الأمين. وكذلك كانت الحال في مملكة الحيرة ومملكة غسان.

كما لم تكن مدن الحجاز مهيأة في ذلك الوقت لقبول هجرة المسلمين إليها؛ فيثرب كانت تمزقها الخلافات الداخلية، ويقوم الصراع فيها على أشده بين قبائلها، هذا إلى علاقات قريش التجارية المتينة مع بطونها؛ سواء من اليهود أو من الأوس والخزرج. وخيبر كانت مدينة يهودية، وكانت صلات اليهود عامة طيبة مع قريش، فضلًا عن أن اليهود كانوا منصرفين إلى مصالحهم راغبين عن الدخول في عداء مع القبائل العربية.

وإذن فقد كانت بلاد الحبشة هي أقرب إقليم هادئ إلى مكة يمكن أن يجد المهاجرون فيه الأمن على حياتهم، كما يمكن أن يحصلوا فيه على معاشهم فقد كانت الحبشة متجرًا لقريش ووجهًا، وكان القرشيون يغشونها للتجارة فهم على معرفة بها وعلى خبرة بمزاولة العمل فيها. كما كانت تكمن وراء الهجرة إليها حكمة سياسية؛ فإن الحبشة كانت تطمع منذ أجيال في فتح الأقاليم العربية، وكان ملوك الحبشة يراقبون من أجل ذلك أحوال الجزيرة مراقبة شديدة، وقد سبق للحبشة أن أرسلت حملة لفتح مكة، ومع أن الحملة

باءت بالفشل، ومع أن الحبشة خرجت من الجزيرة العربية كلها إلى أن الصراع الدولي على امتلاك طرق التجارة لم ينته بعد.

فالهجرة إلى الحبشة تؤدي إلى غرضين: الغرض الأول أن المهاجرين يلقون ترحيبًا من ملك الحبشة؛ أملًا في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في شئون مكة الداخلية، وفعلًا لقي المهاجرون احتفاء وحسن معاملة من النجاشي[١].

والغرض الثاني: هو لفت نظر قريش إلى أن عدوانها على المسلمين يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم، فتتعرض مكة لغزو أجنبي أو تتعرض للإضرار بمصالحها الاقتصادية؛ ولذلك فإن مصلحتها أن تهادن المسلمين وتوقف عدوانها عليهم. وقد أوجست قريش خيفة من هذه الرحلة وحسبت لها حسابًا كبيرًا، فسارعت إلى إرسال بعثة إلى النجاشي تحمل الهدايا له ولرجاله وتطلب إليه رد هؤلاء المهاجرين، وربما لتحاول معرفة موقف الحبشة مع الوضع في مكة، مخافة أن تؤدي هذه الصلة الجديدة إلى أن تعاود الحبشة الكرة على مكة مرة أخرى. لكن البعثة فشلت مهمتها، وبقي المسلمون يتمتعون بالحرية والرعاية، فقد لفتت البعثة أنظار النجاشي نحو هؤلاء الفارين بدينهم إلى بلاده؛ فقدر تضحياتهم وعطف على موقفهم، فبذل العون لهم والرعاية [٢].

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١٨٩).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٦ -٣٦٢)، تاريخ الطبري (٢/ ٧٣).

في هذه الأثناء دخل في الإسلام عناصر قوية من القرشيين فقد أسلم رجلان اشتهرا بالبأس والقوة، هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب [١] وكان كلاهما رجلا قويًّا مرهوب الجانب جريئًا في إظهار رأيه والوقوف في وجه مخالفيه، وكان من اليسير أن يشتبك مع مناوئي الإسلام، فتسيل الدماء وتقع الحرب الأهلية التي كان الملأ حريصًا على عدم وقوعها. ولم يتأن الرجلان عن تحدي قريش، فاشتد بهما ساعد المسلمين وقويت قلوبهم واضطرت قريش إلى أن تهادن بعض الوقت حتى تدبر موقفها إزاء هذا الوضع الجديد، وقد وصلت أخبار هذه المهادنة مسامع المسلمين في الحبشة مبالغًا فيها، حتى لقد قيل: إن قريشًا تابعت النبي ﷺ فعاد بعضهم إلى مكة لكنهم ما كادوا يصلون إليها حتى كانت قريش قد اتخذت لنفسها خطة أشد تجاه المسلمين ومن ينصرهم، فدخل بعضهم مكة في جوار بعض رجال قريش، فقد اعتبرتهم القبيلة خارجين عليها قد خلعوا أنفسهم منها فلم يكن لهم من حماية قبلية إلا في جوار –وعاد بعضهم أدراجه ومعهم عدد آخر أكبر من العدد الأول [٢].

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٢).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ١٩٠-١٩٢).

الفصل الرابع
الصبر على الأذى

تمهيد

الابتلاء سنة كونية، وقد جعلها الله لأوليائه أشد من غيرهم، وكلما زاد إيمان العبد كلما زاد ابتلاؤه، ولذلك كان البلاء للأنبياء أشد من غيرهم كما قال النبي ﷺ: " عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ [(١)].

ولما أرسل الله تعالى رسله إلى أقوامهم ابتلي كل رسول بطائفة منهم أن يقفوا في وجه دعوته، والحيلولة دون أن تصل إلى الناس، وكانوا يستخدمون كل ما أوتوا من قوة في سبيل تحقيق أغراضهم، وذاق الأنبياء صنوف البلاء، وصبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر الله تعالى، ومنهم من قتل ومنهم طرد ومنهم كان لا يجد حماية له من قومه. ومنهم من هاجر وهكذا.

وكان حظ النبي ﷺ من ذلك أكثر، فقد ابتلي بصناصيد الكفر في قريش، وقفوا له في كل مكان وسدوا أمامه كل طريق، وتعرضوا له ولأصحابه بالأذى وشتى صنوف العذاب، فكان لابد من موقف تجاه هذا العنف الشديد والصد الدائم عن دعوة الحق، ولم يكن يوجد موقف أفضل من الصبر. فهو موقف القوة، لأن من السهل أن يتجبر الإنسان على غيره ويلحق به الأذى، لكن من الصعب أن يصبر الإنسان على أذى غيره، فكان موقف قريش

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠٧٩) بسند حسن، وله شواهد كثيرة انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢٢٦/١)

موقف الضعيف الذي لا حيلة له إلا استخدام حيوانيته في التنفيس عن براكين الحقد والغل التي تتوهج في الصدور.

المبحث الأول

معنى الصبر

١ . الصبر في اللغة:

قال ابن القيم رحمه الله في "عدة الصابرين ":

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما ويقال: صبر بصير صبرا وصبر نفسه قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[الكهف:٢٨][(١)].

٢ . حقيقته:

قال ابن القيم:

وأما حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها [(٢)].

وقال ابن الديبع:

وحقيقة الصبر: السكون تحت سلطان الأقدار، فيما ينزل بالعبد، دون جزع ولا شكوى للخلق، ولا يأس من رحمة الله.[(٣)]

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية (ص ١٢)

(٢) المرجع السابق (ص١٤)

(٣) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة لابن الديبع (ص ١٥)

وقد ورد ذكر الصبر وفضله ومكانته في القرآن أكثر من مائة مرة منها:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[آل عمران: ٢٠٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ والْجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]

وقال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[محمد: ٣١]

وفي السنة ورد كثير من الأحاديث في فضل الصبر ومكانته منها:

١ . روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ نَاسًا مِنْ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»(١).

٢. وروى أيضا البخاري عَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رَجَعْنَا مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا كَانَتْ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ

(١) البخاري (١٤٠٠) ومسلم (٢٤٧١)

فَسَأَلْتُ نَافِعًا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ ؟! قَالَ: لا؛ بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ.[1]

(١) البخاري (٢٧٩٨)

المبحث الثاني

أقسام الصبر

ذكر الماوردي رحمه الله في كتابه " أدب الدنيا والدين " نذكرها مع الاختصار:

واعلم أن الصبر على ستة أقسام، وهو في كل قسم منها محمود.

فأول أقسامه وأولاها: الصبر على امتثال ما أمر الله –تعالى– به، والانتهاء عما نهى الله عنه؛ لأن به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب، كما قال في محكم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠] وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا.

ويدفع عنها عقابا، كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال.

وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه.

والقسم الثاني: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد كده الهم بها فإن الصبر عليها يعقبه الراحة منها، ويكسبه المثوبة عنها.فإن صبر طائعا وإلا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما.

والقسم الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من مسرة مأمولة فإن الصبر عنها يعقب السلو منها، والأسف بعد اليأس خرق.

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله.

والقسم الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت، فإن أكثر الهموم كاذبة وإن الأغلب من الخوف مدفوع.

قال الحسن البصري رحمه الله: لا تحملن على يومك هم غدك، فحسب كل يوم همه.

والقسم الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها فإنه إن أدهشه التوقع لها، وأذهله التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه.

وإذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله، فأبصر رشده وعرف قصده.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:(الصَّبْرُ ضِيَاءٌ)[1].

يعني – والله أعلم – أنه يكشف ظلم الحيرة، ويوضح حقائق الأمور.

وقال أكثم بن صيفي: من صبر ظفر.

وقال ابن المقفع: كان مكتوبا في قصر أزدشير: الصبر مفتاح الدرك.

وقال بعض الحكماء: بحسن التأني تسهل المطالب.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥٦)

وقال بعض البلغاء: من صبر نال المنى، ومن شكر حصن النعمى.

والقسم السادس: الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف.

فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء، وتستدفع مكائد الأعداء، فإن من قل صبره عزب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]

واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر. (١)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مستأصل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان.

وقال بعض الحكماء: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور.

وقال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج.(٢)

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا غُلامُ . أَوْ يَا غُلَيِّمُ . ! أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ ؟

فَقُلْتُ: بَلَى

فَقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا.

(٢) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي (ص ٢٩٥ . ٢٩٨)

المبحث الثالث

مواقف من سيرة النبي ﷺ والصحابة في الصبر في العهد المكي

ولقد وجاه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم الصعوبات البدنية والنفسية، وكانوا كالجبال الرواسي، ومن أصابه منهم ضعف شد النبي ﷺ من عزيمته وقد سجلت لنا كتب السيرة كثير من هذه المواقف

الموقف الأول: النبي ﷺ وصدود عمه أبي لهب

إن من أصعب شيء على النفس أن يدعو الإنسان الناس إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم أو ينصحهم فيما ينفعهم ثم يجد منهم صدودا، ومن أصعبها أن يجد الصدود من أقرب الناس إليه (عمه) وهو صنو أبا الرجل. فكل إنسان يكن الاحترام لعمه كما يحترم ويقدر أباه.

فقد روى البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]

صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟

قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلا صِدْقًا

قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟!! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[سورة المسد][1]

لم يثبت أن النبي ﷺ قابل ما فعله عمه بردت فعل، وإنما قابل ذلك بالصبر، وهو من أصعب شيء على النفس. ولكن النبي ﷺ مضى في دعوته وكأنه لم يسمع مثل هذه السفاهات.

الموقف الثاني: رمي الجزور على رأسه

روى مسلم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّى عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلاَ جَزُورِ بَنِى فُلاَنٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ قَالَ فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ. لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ وَهِىَ جُوَيْرِيَةٌ فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلاَثًا. وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاَثًا ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ

(١) البخاري (٤٦٨٧)

عُقْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ». وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ.(١)

موقف عظيم من نبي عظيم ﷺ فلم يقابلهم بالشتم ولا بالضرب ولا بإعلان الحرب عليهم؛ وإنما قابلهم بالدعاء عليهم وهو ما يؤكد مدى اعتماد النبي ﷺ على ربه لا على نفسه، فإن نصر الله تعالى له أعظم من انتصاره هو لنفسه. فصبره عليهم يعلمنا كيف نصبر على أذى المخالف وأننا لو رأينا منه تطاولا يصل إلى حد الاستخفاف ورأينا المجابهة فيها مفسدة، فحينئذ اللجوء إلى الواحد القهار سبحانه بالدعاء على الظالم .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

وَفِيهِ حِلْمُهُ ﷺ عَمَّنْ آذَاهُ فَفِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيّ عَنْ شُعْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ اِبْن مَسْعُود قَالَ: لَمْ أَرَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. وَإِنَّمَا اِسْتَحَقُّوا الدُّعَاءَ حِينَئِذٍ؛ لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ الِاسْتِخْفَافِ بِهِ ﷺ حَالَ عِبَادَة رَبِّهِ.(٢)

الموقف الثالث: موقف الصحابة وآل ياسر رضي الله عنهم

فإن النبي ﷺ وجد أصحابه يعذبون بشتى ألوان العذاب، ومع ذلك لم يقل لهم غير أنه أمرهم بالصبر وعدم الاستعجال.

---

(١) مسلم (٤٧٥٠)

(٢) فتح الباري لابن حجر – (ج ١ / ص ٣٧٧)

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء (مكة) إذا اشتد الحر من استضعفوه منهم يفتنونهم عن دينهم

فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبهم ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم

وقد تقدم حديث ابن مسعود:

أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد

فأما رسول الله فمنعه الله بعمه وأبو بكر منعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب (مكة) وهو يقول: أحد أحد

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال:

(أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة) رواه البيهقي عن الحاكم

قلت: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النحل: ١٠٦]

فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته

وعن خباب بن الأرت قال:

كنت رجلا قينا وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد

حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾[مريم: ٧٧ - ٨٠]

أخرجه أحمد والبخاري ومسلم في (الصحيحين) وفي لفظ البخاري:

كنت قينا ب (مكة) فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه... فذكر الحديث

وفي طريق أخرى له عنه قال:

أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال:

«لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من (صنعاء) إلى (حضر موت) ما يخاف إلا الله عز وجل» (زاد بيان: «والذئب على غنمه»

وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون»[1]

الموقف الرابع: الحصار

حوصر النبي ﷺ وأصحابه في شعب أبي طالب قرابة الثلاث سنوات ومنع عنهم الطعام والشراب حتى وصل بهم الأمر أن أحدهم كان يأكل الجلود اليابسة.

قال بدر الدين العيني:

لما بلغ قريشا فعل النجاشي بجعفر وأصحابه وإكرامه لهم كبر ذلك عليهم جدا وغضبوا وأجمعوا على قتل سيدنا رسول الله وكتبوا كتابا على بني هاشم أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري فشلت يده.

وفي الأنساب للزبير بن أبي بكر اسمه بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار

(١) صحيح السيرة النبوية – (ج ١ / ص ١٥٤. ١٥٦)

وقال الكلبي: هو منصور بن عامر بن هاشم أخو عكرمة بن عامر بن هاشم.

ثم ذكر في (الطبقات) وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

وقال بعضهم: بل كانت عند أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية خالة أبي جهل وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين النبوة، وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبة، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمارة، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد فأقاموا فيه ثلاث سنين، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة أكلت ما كان فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل.

وفي لفظ: ختموا على الكتاب ثلاثة خواتيم، فذكر ذلك النبي لأبي طالب، فقال أبو طالب لكفار قريش: إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور وظلم وبقي فيها كل ما ذكر به الله تعالى، فإن كان ابن أخي صادقا نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا: قد أنصفتنا، فإذا هي كما قال رسول الله، فسقط في أيديهم، ونكسوا على رؤوسهم.

فقال أبو طالب: علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ؟!!، فتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، منهم مطعم بن عدي وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البحتري بن هاشم، وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة. أ هـ [1]

وكان موقف خديجة رضي الله عنها عظيما:

"فقد تركت دارها، وانتقلت مع محمد ﷺ إلى شعب أبي طالب، تقاسي ما يقاسي زوجها وما يقاسي أتباعه معه. ولم تتوان رغم تجاوزها الستين في أن تقوم لمحمد ﷺ بما كانت تقوم له من قبل. فظلت هي المواسية المشجعة المؤازرة وزير الصدق الذي عاون محمدا، وأخذ بيده منذ بدء دعوته.

ليس هذا فقط.. بل وكانت تدبر أمر إيصال بعض الطعام إلى الشعب المحاصر، وتشرف بنفسها على توزيعه على المحاصرين.. ثلاث سنوات طوال، مكثها المسلمون محاصرين في الشعب، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد، فأكلوا ورق الشجر وسُمع صراخ أطفالهم من بعيد.. وإذا استطاع

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ج ١٤ / ص ٤٣٨) وانظر الرحيق المختوم (ص ١٢٥،١٢٦)

(٢) أمهات المؤمنين في مدرسة النبوة لمصطفى الطحان (ص ٢٤)

الحصار أن ينال من الأجساد المتعبة، إلا إنه كان يصفي المعدن الكريم، فيزداد قوة وصلابة وتمسكا بالدعوة العظيمة." [١]

وفي هذا الحدث العظيم من الدروس ما لا يسعه مجلد ولكننا نأخذ منه ما يفيد بحثنا هنا وهو الصبر على أذى العدو في الحصار.

جاء في كتاب "الصبر والثبات في مواجهة الحصار للدكتور " نعيم أسعد الصفدي أستاذ مساعد في قسم الحديث الشريف – كلية أصول الدين – الجامعة الإسلامية أبريل/ ٢٠٠٧– بتصرف:

وأهم ما يمكن استنباطه من هذه المقاطعة الآتي:

الحصار طَبْع المجرمين وقُطَّاع الطريق قديماً وحديثاً يؤذى به الناس ويضيق عليهم في الأرزاق والمعاملات والعقود فكم ابتلي المسلمون بأذى المشركين لما تحالفت قريش ضد النبي ﷺ ومن معه. ولذلك تلجأ الجاهلية تضييقاً على الناس وكبتاً لهم

محاولة خنق الدعوة بالحصار الشامل: وذلك عند عدم نجاح العدو وإحساسه بالإحباط والخوف من تصاعد شعبية المسلمين فيلجأ إلى هذا الأسلوب اللا أخلاقي حيث يفرض الحصار على المسلمين ومن وقف معهم وعصبياتهم[١]

(١) دراسات في السيرة. تأليف أ.د نزار ريان ود. سالم سلامة ود. طالب أبو شعر. (ص١٣٥). الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

أسلوب المقاطعة من أغرب الأساليب وأخطرها في مواجهة الدعوة، وهو يتكافأ مع مدى القوة التي وصلت إليها الدعوة في محاولة من المحاولات اليائسة للإجهاز عليها وإفنائها، وإن كان أسلوب الاغتيال ينال شخص قائد الدعوة وعصبها الرئيس فأسلوب المقاطعة يتناول كل فرد فيها، بل يتناول كل فرد يناصرها أو يذود عنها أو يتعاطف معها[٢]

أغيظ ما يغيظ الكفار انتشار الإسلام بين الناس. لأن هذا يدل على انحسار الكفر واندحاره في مستقبل الأيام وهذا يدلنا على الحالة النفسية التي يعاني منها معسكر الكفر. وهم يرون الإسلام يزحف والكفر يتراجع ومصيرهم مهدد. ولذلك فهم حين يعجزون عن مقارعة الحجة بالحجة، ومواجهة الفكرة بالفكرة، يلجأون إلى أسلوب التصفية وسفك دماء الذين يخالفونهم في التوجه والفكر والعقيدة، ظناً منهم أن بقتلهم تقتل دعواتهم وتموت مبادئهم، وهذا وهم باطل وظن كاذب أثبت الواقع كذبه وبطلانه [٣].

الكفر ملة واحدة وأسلوب الحصار من الأساليب التي يستخدمها العدو دائما فليستعد المسلمون دائما لمواجهة ذلك، قال الدكتور إبراهيم أحمد:

---

(١) منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية. تأليف الطيب بَرْغُوث. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. سلسلة قضايا الفكر الإسلامي. (ص٣٤٧) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م..

(٢) فقه السيرة النبوية. تأليف منير محمد الغضبان.(ص١٢١) دار الوفاء. الطبعة الأولى١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٣) السيرة النبوية دراسة تحليلية. تأليف الدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس. (ص١٦٦) دار الفرقان – الأردن. الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٧م..

على كل شعب في أي وقت يسعى لتطبيق شرع الله عليه أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملة واحدة، فعلى قادة الأمة الإسلامية تهيئة أنفسهم وأتباعهم لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار [١].

تكاتف الأعداء ضد المسلمين ومن ساعدهم، يقول أحمد إبراهيم الشريف: وقد استجابت كل البطون القرشية ما عدا بني هاشم وبني المطلب لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هذا التيار [٢].

والحصار الذي فرض علينا- نحن أهل فلسطين - من جميع قوى البغي والظلم والتي على رأسها أمريكا بعد أن أفرزت الانتخابات الديمقراطية النزيهة حركةَ المقاومة الإسلامية فخشي هؤلاء من تقدم المارد الإسلامي وزحفه إلى البلدان الأخرى.

---

(١) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية. تأليف الدكتور إبراهيم علي أحمد. (ص ٩٨) سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف – قطر. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م...

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ (ص٢٧٤-٢٧٥) نقلا عن دراسة في السيرة. تأليف الدكتور عماد الدين خليل. (ص٨٦)دار النفائس – مؤسسة الرسالة- بيروت. الطبعة الثالثة عشر ١٤١٢هـ/١٩٩١م..

الخصم لا يكتفي باضطهاد المسلم وتعذيبه وإنما يتجاوز أصحاب الحق إلى كل من يتعاطف معهم من الجماهير، ولو لم يكونوا على دينهم، في محاولة للضغط على هذا الصف المتعاطف حتى لا يفكر بالالتحاق بصف المسلمين، ولتلقين الجماهير بهذا الضغط درساً مسبقاً، محذراً له خطورة مستقبله، ومستقبل مصالحه وتجارته وأوضاعه الاجتماعية [١].

يقول الباحث: انظروا إلى هذا الحصار الظالم الذي يقوم به الأعداء ضد شعب فلسطين لأنه قام بانتخاب أهل الحق وكأنهم يعاقبون الشعب على اختياره حتى يندم على هذا الانتخاب.

تحرك العدو لمنع منافذ النشاط الاقتصادي كافة ومنع سبل المساعدة عن المحاصرين من أجل الإضرار بهم وحملهم على التخلي عن حماية الرسول ﷺ وبالتالي حملهم على الرضوخ لمطالب المحاصِرين.

حيث كانت قريش تبادرهم إلى الأسواق يشترونها ويغلونها عليهم ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: أيما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه... ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعلي النقد [٢]

ولذلك نلاحظ أن الكيان الصهيوني يحاصر الفلسطينيين في اقتصادهم فلا يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم في اقتصادهم بل ربط اقتصادَهم به من

---

(١) شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي. تأليف الدكتور راجح عبدالحميد الكردي. (ص١٤٥)دار الفرقان – الأردن. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م..

(٢) انظر الوسيط في السيرة النبوية (ص ٢٠٩).

خلال اتفاقات أوسلو الظالمة، وحتى إنه يحاربهم بضرب منتجاتهم الوطنية عبر إغلاق المعابر مما يؤدي إلى كساد السلع وبيعها بأبخس الأسعار.

....وقال الدكتور علي الصَّلابي: "كانت هذه السنوات الثلاثة للجيل الرائد زاداً عظيماً في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار" [(١)].

وقال الدكتور محمد أبو فارس: وسيلة الضغط على المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وعلى المتعاطفين معهم كانت مؤلمة إلا أن الثبات والصبر على المبدأ وقوة إيمان المسلمين ثبتهم أمام هذه المقاطعة العامة [(٢)].

استثارة العواطف الإنسانية لدى الناس وكسبهم للوقوف مع المسلمين.

قال الدكتور محمد أبو فارس: "هناك نوازع للخير عند الإنسان وهناك عنصر العاطفة والرحمة والشفقة يمكن أن يكون لها دور في الوقوف بجانب المظلومين والمضطهدين، ويمكن استثارة هذه العوامل والعناصر وتوجيهها لمناصرة الخير وأهله والحق ودعوته "[(٣)].

---

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث دروس وعبر. تأليف الدكتور علي محمد الصَّلاَّبي(١/٣١٣). دار الفجر للتراث – القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م..

(٢) السيرة النبوية دراسة تحليلية (ص ١٦٦).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) قراءة سياسية للسيرة النبوية. تأليف أ. د محمد روَّاس قلعجي(ص ٦٢). دار النفائس – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

ويقول الدكتور محمد قلعجي: إن كثيراً من المشركين وهم الأعداء التقليديون لمحمد ﷺ ولدينه عندما رأوا ما أحاط بالرسول ﷺ وبمن معه من الضيق والشدة في الشِّعب قد انقلبوا إلى صفه، وأصبحوا من المدافعين عنه وهذا ما أدى إلى تمزيق الصحيفة الظالمة، وبذلك وجدت الخلخلة في صفوف المشركين، فلم تعد كلمتهم واحدة، وظهر لأول مرة من يرفع صوته معترضاً على مضايقة محمد ﷺ وأصحابه وقومه [١]

قال د. راجح الكردي: " الصبر وتحمل الأذى وسماع أمر القيادة له دور كبير في المحافظة على الصف الداخلي وتوحيد الجهود ضد العدو" [٢].

وقال الأستاذ منير الغضبان: كانت تعليمات الرسول ﷺ لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو وأن يضبطوا أعصابهم فلا يشعلوا فتيل المعركة أو يكونوا وقودها، وإن أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة، حمزة وعمر وأبي بكر وعثمان وغيرهم سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى وهذا الحقد وهذا الظلم فكفوا أيديهم وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط أو يوماً واحداً فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس [٣].

---

(١) الوسيط في السيرة (ص٢٠٠)

(٢) شعاع في السيرة (ص ١٤٦)

(٣) التربية القيادية. تأليف منير الغضبان.(١/٣٧١) دار الوفاء- المنصورة. الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

واعتبر صالح أحمد الشامي أن الحصار الذي فرض على النبي ﷺ ومن معه جانباً من التطبيق العملي للصبر حيث قال: ولقد صبر النبي ﷺ ومن معه في حصار الشعب حتى استثار صبرهم حمية بعض القوم من أمثال المطعم بن عدي وهشام بن عمرو وزمعة بن الأسود فقاموا بأمر نقض تلك الصحيفة الظالمة [1].

الصبر والثبات على الحق هو خير زاد لإبراز صدق الدعوة أمام الجماهير.

قال د. راجح الكردي: إن ثبات أصحاب الحق على حقهم، واحتمالهم الأذى في سبيل الله، والتحكم في أعصابهم لصالح دعوتهم خيرُ رد على الجاهلية الحمقاء، وهو زادهم على الطريق، بل وعلامة بارزة على صدق دعوتهم أمام الجماهير، وفرصة مربية من خلال المواقف العملية الجادة على طريق تأهيلهم لاستنزال رحمة الله ونصره لهم ولدينه على أيديهم. وإن مما حدث مع سعد بن أبي وقاص وأكله جلد بعير واقتات به ثلاثا ليؤكد بأن المؤمن ما خلق ليملأ بطنه بأطايب الطعام على حساب دينه، وإنما خلق ليعيش إيمانه ويدعو لربه، ولا يهمه ما يملأ هذا البطن لا في نوعه ولا في

(١) السيرة النبوية تربية أمَّة وبناءُ دولة. تأليف صالح أحمد الشامي(ص٩٦). المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م..

كمِّه، فالشعوب لا تقاد ببطونها، وإنما تقود وتقاد بإيمانها وفكرها ومبادئها[١].

وقال أيضاً: في قمة تحديات الخصم يظهر سمو إيمان المؤمنين، وقمة يقينهم بأن الأجل والرزق بيد الله، والأذى الذي يلقاه الداعية، إنما هو ضريبة لتمحيص الإيمان تمحيصاً واقعياً كما قال سبحانه " ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾[آل عمران: ١١١][٢]

- **وأفوض أمري إلى الله**

بعد الصبر لابد من تفويض الأمر إلى الله تعالى فهو ناصر عبده لا محالة، وهذا ما حدث مع النبي ﷺ فقد روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ

قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ.

فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ – قَالَ – فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ – قَالَ – فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ – قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ ؟

فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا ».

---

(١) شعاع من السيرة (ص١٤٦،١٤٥)

(٢) شعاع من السيرة (ص١٤٦).

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْءٌ بَلَغَهُ ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ﴾[1]

(١) مسلم (٧٢٤٣)

الفصل الخامس

الاستنصار على مخالفه بقوة خارجة تحميه من بطشه

المبحث الأول

تمهيد

المخالف إذا كان يستضعف مخالفه، ويرى أن لا وسيلة في ردعه عن دعوته إلا القوة فإنه يلجأ إلى القوة في ردعه وكف أذاه عن المظلومين، ولذلك كان كل نبي في منعة من قومه، حتى قال لوط عليه السلام لما أراد قومه الفتك بضيوفه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾[هود: ٨٠ ـ ٨٣]

وقال قوم مدين لشعيب: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) ﴾[هود:٩١]

فلما أصر أهل مكة على المكابرة والعناد، وترك دين الله الواحد القهار ورضوا بدين الجاهلية والأصنام، وظلموا وفتكوا بالعباد أراد النبي ﷺ أنه يستنصر بمن خارج مكة من القبائل الأخرى.

فقد"كانت النصرة التي طلبها النبي ﷺ ذات صفة مخصوصة، وذلك على النحو التالي:

١- كان طلب الرسول ﷺ للنصرة من خارج مكة إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتد الأذى عليه، عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش؛ وذلك لأن من يحمل الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعّال والنشاط في حمل الدعوة، وتوفير الاستجابة لها، في جو من العنف، والضعف والإرهاب.

٢- كان عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النصرة، إنما هو بأمر من الله عز وجل له في ذلك، وليس مجرد اجتهاد من قبل نفسه، اقتضته الظروف التي وصلت إليها الدعوة.

٣- حصر رسول الله ﷺ طلب النصرة بزعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون؛ لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

٤- رفض النبي ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها أي ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان، على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمون من نصرة، وتأييد للدعوة الإسلامية؛ وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس طمعًا في نفوذ أو رغبة في سلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاط الإنسان في

السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة، عن أي مصلحة مادية لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها[١] فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله، ألا يشترط عليها منصبًا أو عرضًا من أعراض الدنيا؛ لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداء وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل، فهذه علامة خطيرة تنبئ عن دخن في نية صاحبه [٢] لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة» [٣].

٥- ومن صفة النصرة التي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه، يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها وتهديدًا لمصالحها [٤].

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير (١/٤١١)

(٢) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي، (ص٧٢).

(٣) انظر: صفة الصفوة (٤/٩٤).

(٤) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/٤١٢).

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله ﷺ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات [١].

٦- «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» كان هذا الرد من النبي ﷺ على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي ﷺ حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة، يرَ بُعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامى [٢]."اهـ [٣]

(١) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان، (ص٥٣)

(٢) نفس المصدر، (ص٦٤).

(٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - (ج ١ / ص ٣٥٣)

المبحث الثاني

الطرق التي سلكها النبيﷺوأصحابه في الاستنصار بمن خارج مكة

وكان لهذا طرق كثيرة منها:

١ . عرض الإسلام على قبائل العرب في مكة ونواحي مكة

قال ابن القيم رحمه الله:

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيا، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم، وفي المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم، فإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه، ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا.

قال: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة ومحارب بن حصفة وفزارة

وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو النضر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة فلم يستجب منهم أحد [١]

٢. عرض الإسلام على الناس في موسم الحج.

" للحج ارتباط كبير بالحياة الاجتماعية والاقتصادية عند العرب، فقد كان لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعي، وكان له من أجل ذلك أثر كبير في حياتهم الاجتماعية، فقد كان شاملًا للعرب جميعًا على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية، حيث يفدون إلى منطقة مكة –البيت الحرام– من كل صوب، فيلتقون في موسم الحج وأسواقه في ظل الأشهر الحرم، ويجتمعون فيتعارفون ويتبادلون المنافع من بيع وشراء ومبادلة. ويعقدون المجالس للمفاخرات، والمشاورات وحل المشاكل، وكان كل صاحب فكرة وكل صاحب دعوة يريد أن يعلن عنها يجد له في أسواق الحج مجالًا صالحًا، وحتى المبشرون من المسيحيين وغيرهم كانوا يأتون إلى هذه الأسواق يدعون لديانتهم. حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الأسواق كانت منبرًا عامًّا تلتقي فيه الأفكار من كل لون، وبذلك أصبحت هذه الأسواق مجالًا للنشاط العربي بكل مظاهره، فأتاحت للعرب وبخاصة قبيل البعثة فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية."[٢]

---

(١) زاد المعاد – (ج ٣ / ص ٣٨)

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول – الرقمية – (ص ١٤٩)

فكان موسم الحج موسم دعوي للنبي ﷺ وأصحابه، إذ هو فرصة في انتشار الإسلام خارج مكة، فلم يتوانى أحد في استقبال أهل الحج. وكان من ثماره بيعتي العقبة الأولى والثانية:

بيعة العقبة الأولى:

قدمنا سابقا قصة بيعة العقبة الأولى وفيها:

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.(١)

وبعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

(١) سبل الهدى والرشاد – (ج ٣ / ص ١٩٤)

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب»[(١)].

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء [(٢)]

وكان النبيﷺ قد أرسل معهم مصعب بن عمير يعلمهم أمور الإسلام في المدينة ويدعو هناك لهذا الدين.

بيعة العقبة الثانية:

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة . يونيو سنة ٦٢٢م . حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم . وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

---

(١) صحيح مسلم (١٧٠٩). وانظر: الغرباء الأولون لسلمان فهد العودة، (ص١٨٥).

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ج ١ / ص ٣٦١)

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل. ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام. يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا . وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا . فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، وامرأتان من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب . أم عمارة . من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو . أم منيع . من بني سلمة.

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب . وهو يومئذ على دين قومه . إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم.

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، تكلم ليشرح لهم . بكل صراحة . خطورة المسئولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. قال:

يا معشر الخزرج . وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا، خزرجها وأوسها كليهما . إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وإنه قد أبي إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه. فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسئولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلا. قال جابر: قلنا: يا رسول الله، علام نبايعك ؟

قال: « على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

وعلى النفقة في العسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة ».

وفي رواية كعب ـ التي رواها ابن إسحاق ـ البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه: قال كعب: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم وأبناءكم».

فأخذ البراء ابن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما نمنع أزرنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر.

قال: فاعترض القول . والبراء يكلم رسول الله ﷺ . أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها . يعنى اليهود . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: « بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم ».(١)

لا شك أن بيعتي العقبة الأولى والثانية كانتا من الأهمية بمكان، فهي تعد بحق أول فتح للمسلمين، حيث أمنت لهم الحماية في أرض الجزيرة، وفي مكان قد اختاره الله تعالى لنبيه ليبني فيه الحرم الثاني بعد بيت الله الحرام ويكون انطلاقة إلى تكوين الدولة الإسلامية الكبرى وانتشار الإسلام في شتى بقاع الأرض. وفي نفس الوقت لم يعلن النبي ﷺ حربا على أهل قريش طمعا في دخولهم في دين الله تعالى، ولكن صناديد الكفر لم يكن يأبهون لذلك وكانوا يظنون أن سكوت النبي ﷺ عليهم ضعفا.

ولقد كان في هاتين البيعتين من الفوائد والدروس العظيمة التي لا يسعها بحث مثل ذلك ولكن ما يعنينا هو:

أ . تطلع النبي ﷺ إلى وجود قوة خارج مكة لحماية أصحابه من بطشهم، وتمكين لدعوة الحق من الانتشار

ب . البعد عن إثارة المخالف واستفزازه مما يعرض أهل الحق لكثير إيذاء

---

(١) الرحيق المختوم (ص ١٦٤ . ١٦٧)

ج . عدم مجابهة المخالف إلا بعد عدة قوية وإصراره على الاستئصال.

د . التركيز في دعوة الناس على أصل الدين وهو توحيد الله وعلى الأخلاق الحسنة

هـ الحيطة والحذر وعدم احتقر الخصم والتعامل معه باعتباره أقل شأنا.

٣ . الخروج للطائف

قال ابن القيم:

فلما نقضت الصحيفة وافق موت أبي طالب وموت خديجة وبينهما يسير فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه وتجرءوا عليه فكاشفوه بالأذى فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم ودعاهم إلى الله عز وجل فلم ير من يؤوي ولم ير ناصرا وآذوه مع ذلك أشد الأذى ونالوا منه ما لم ينله قومه وكان معه زيد بن حارثة مولاه فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه فقالوا: اخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه فانصرف راجعا من الطائف إلى مكة محزونا... فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة وهما جبلاها اللذان

هي بينهما فقال لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا [١]

لم يكن النبي ﷺ يريد أذى لقريش، لو كان يريد لوافق على إطباق الأخشبين عليهم، ولكن كان هدف النبي ﷺ أسمى من أن ينتصر لنفسه من هؤلاء، بل طمع في أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله إذا كان هم لن يسلموا لله تعالى.

فلا يكون التعامل مع المخالف كما يقول بعض الناس ويدعوا: اللهم اهدي فلانا، وإن لم تهديه خذه !!!!

كان في مقدور النبي ﷺ أن يدعو على أهل مكة فيستجيب الله تعالى له، ولكنه لم يفعل بل إنه ظل يدعو عمه إلى الحق إلى أن مات على الشرك، ومع ذلك قال ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عزوجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ "[٢]

---

(١) زاد المعاد (ج ٣ / ص ٢٨) باختصار

(٢) أخرجه البخاري (٢١٩٤)

الفصل السادس

الحيطة والحذر في التعامل مع المخالف

المخالف إذا كان يضمر لك العداء فلابد من أخذ الحيطة والحذر في التعامل معه حتى لا يقع أمرا لم يكن في الحسبان وقوعه، ولا يستصغر الإنسان عدوه، ولا يقلل من مكره وخديعته.

وقد كان النبي ﷺ في العهد المكي شديد الحيطة والحذر من أساليب أهل مكة في الصد عن دعوته.

وإذا أردنا التفصيل في هذا الشأن فإن كل ما اتخذه النبيﷺ في دعوته في مكة كانت فيها مراعاة للحيطة وللحذر التي تضمن الحماية للدعوة وأهلها.

وكانت هذه الحيطة والحذر تتمثل في أكثر من شيء

المبحث الأول

الحيطة والحذر في سرية الدعوة

كانت السرية من أهم جوانب الحذر والحيطة حتى لا تكون الجهرية في بداية الأمر عائقا في طريق الدعوة

وقد فصلنا هذا الأمر في فصول سابقة وهي على النحو التالي:

أولا: الحيطة والحذر في بدأ الدعوة

وذلك بالبدء بدعوة أشد المقربين إليه ممن وضعت فيهم الثقة الكاملة التي لا يصبها خلل حرصا على عدم تفشي الأمر بداية

فاستجابت خديجة رضي الله عنها ثم كان أبو بكر الصديق ثاني الذين يثق فيهم رسول الله ﷺ .

وهذا الأمر له جانبان:

الجانب الأول: حيطة وحذر في مجتمع إسلامي ويكون بمثابة خروج على الحاكم

فهذا مما لا يجيزه الشرع، لأن تأكيد الأواصر بين الحاكم والمحكوم من أهم العوامل على استقرار الأمن وحقن الدماء. وعلى مر العصور لا نرى سرية في تنظيم يطيح بحاكم إلا عاد بالمفساد العظيمة على الناس، ولم تتحقق من ورائه أي مصلحة، اللهم إلا من مصلحة من غلب واستولى على البلاد. لكن في جانب الشعوب فدماء أهريقت لا حصر.

الجانب الثاني: حيطة وحذر في ما لا يترتب عليه ضرر

وهو عادة إما في بلد لا يستطيع المسلم فيها إقامة شعائر دينه، أو في بلد تعلوها أحكام العلمانية وغير مسموح بدعوة الناس للحق.

ثانيا: الحيطة والحذر في اختيار بمنزل الأرقم بن أبي الأرقم

حيث لم يدر بخلد أهل مكة أن يكون هو مقر التقاء النبيﷺ بأصحابه وجذب الجدد من الداخلين في الإسلام إليه ليتلقوا تعاليم الإسلام.

كما أن موقع هذه الدار على الصفا، وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، ولا تخفى الأهمية الأمنية لهذا الموقع، فكونها في معزل، يجعلها بعيدة عن مراقبة قريش، الأمر الذي يجعلها محاطة بالسرية، ولا تحتاج عملية الوصول إليها، أو الخروج منها، إلى كبير عناء، أو احتياطات معقّدة، كما أن بعدها عن مجالس قريش يزيد من ميزتها، فمجالس قريش عادة ما يدور فيها الحديث عن الرسول ﷺ وصحبه، فإذا كانت قريبة من تلك المجالس سهل رصد ومراقبة القادمين إليها والخارجين منها.

ومن جوانب الحماية التي روعيت في دار الأرقم، تصميم الباب الذي ترك فيه شقوق أي فتحات يمكن من خلالها مشاهدة مَن بالخارج، ومعرفة هويته، ومن ثم يتم التصرف، وفقًا لذلك، ويظهر لنا ذلك في قصة إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه، حين طرق الباب، فقبل أن يُفتح له، نظر أحد الصحابة من خلل الباب، فتأكد من هوية الطارق، بأنه عمر، جاء متقلدًا سيفه،

فأخبر بذلك النبي ﷺ.. فوجود هذه الفتحات، ييسر معرفة الطارق.. ولكن هناك أمر لابد من مراعاته، هو أهمية تغطية هذه الفتحات من الداخل أو تصميمها بطريقة تمنع مَن بالخارج من رؤية الذي بالداخل، مثل ما تعارف الناس على تسميته اليوم (بالعين السحرية).. وذلك حتى لا تكون هذه الفتحات ثغرات، يطلع من خلالها أعداء الدعوة على ما يدور بداخل المقر.(١)

ومن جوانب الحيطة أيضًا، التصرف السليم إبان حالات الطوارئ، وهو شيء ضروري وهام، ويعد مكملاً للالتزام بالمنهج الأمني، فإذا ظهر طارئ، بالرغم من الاحتياطات، يأتي هنا دور التصرف السليم لدرء هذا الطارئ، فما قام به النبي ﷺ تجاه سيدنا عمر، حينما دخل دار الأرقم بن أبي الأرقم، يعد تصرفًا مهمًا ودقيقًا، يتناسب والموقف.. فساعة دخول سيدنا عمر رضي الله عنه، قام إليه النبي ﷺ فأخذ بمجامع ثوبه، وحمائل سيفه، وقال: (ما أنت بمنته يا عمر، حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزله الله بالوليد؟)

والحكمة من هذا التصرف، تظهر من أخذ النبي ﷺ بمجامع ثوبه، وحمائل سيفه، ليمنعه من استخدام سلاحه، وفي ذات الوقت يسهل ردعه، إذا أبدى أي مقاومة، أضف إلى ذلك أسلوب الترهيب.(٢)

---

(١) في السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحماية لإبراهيم على محمد (ص ٤٢)

(٢) المصدر السابق (ص٤٢، ٤٣)

ثالثا: تكوين مجموعات دعوية سرية

تتطلب مرحلة البدء من عمر الدعوة، قلة الاجتماعات والمجتمعين، أي أن تكون الاجتماعات قليلة، ومتباعدة، وألا يتعدى عدد المجتمعين فيها الخمسة أفراد، حفاظًا عليهم وحماية لدعوتهم، ومنعًا لتسرب المعلومات، ولعل خير سبيل لتحقيق تلك الغاية، ما يسمى بالمجموعات الصغيرة.

والمجموعات الصغيرة من أنسب الأساليب الدعوية لمرحلة بدء الدعوة، لكونها تمتاز بخصائص أمنية دون سواها من الأساليب الأخرى، ومن أهم تلك الجوانب قلة أفرادها، مما يجعل ترتيب اللقاء أمرًا ميسورًا، وذلك لسهولة الحصول على المقر، إضافة إلى أن مثل هذا العدد ليس ملفتًا للنظر، ولا مثيرًا للشبهات، فعادة ما يتم داخل منازل الدعاة، وهذا يقلل من الاحتياطات المعقدة، والتي عادة ما يتطلبها المقر الكبير، كما أنه يصعب منعها أو القضاء عليها، إذ يمكن أن تمثل كل أسرة مجموعة دعوية.

والتجمع الصغير في هذه الدعوة، يعد مصنعًا مصغرًا، يُربَّى فيه الفرد المستجيب للدعوة، وفق ما يأمر به الإسلام، ففي هذه النواة يتعلم أمور دينه، ويروض نفسه، ويزكيها لتصيح أهلاً للقيام بأعباء الدعوة، وفيها يؤهل نفسه للمرحلة التالية، ويتعلم فيها متطلبات المرحلة الحالية والمقبلة.

والمتابع لسيرة الرسول ﷺ يجد أنه كان يوزع المستجيبين للدعوة في مرحلة بدء الدعوة، إلى مجموعات صغيرة، يتراوح عدد أفرادها بين الثلاثة إلى الخمسة، تجتمع يوميًا، أو دوريًا في أماكن مختلفة، وأزمنة مختلفة.

لقد كانت تلك التجمعات في الفترة السرية من عمر الدعوة، تستخدم في عدة أمور، منها تعليم الصحابة رضي الله عنهم أمور دينهم، وبخاصة القرآن الكريم، كما أنها ساعدت في تأدية الصلاة في جماعة، واستخدمت كأداة في تحقيق التكافل الاجتماعي [1]

(١) المصدر السابق (ص٤٩)

المبحث الثاني

الحيطة والحذر في الحس الأمني لدى الصحابة

فدعوة الحق على مر العصور قد تتعرض لضغوط أمنية، وتهديد لأصحابها على حسب حال الحكومات التي تحكم المسلمين معتقداتها، فنرى في عهد المأمون والواثق كان لا يستطيع أحد أن يدعو إلى أن القرآن كلام الله غير مخلوق، إلا من خلال الاستسرار بها، وفي عهد الفاطميين لم يكن أحد يستطيع المجاهرة بذكر كفرهم وضلالهم، وفي عهد طغيان الأشاعرة والصوفية على الحكومات كان من الصعوبة في مكان الجهر بعقيدة السلف، وفي عهد الشيوعية لم يكن أحد من المسلمين أن يجاهر بإسلامه برغم أن الدولة دولة إسلام، والآن في بلاد كثيرة تحارب فيها دعوة التوحيد، ولا يستطيع أحد أن يظهر الهدي الظاهر للإسلام، وهكذا.

فلابد في هذه الحال أن يكون لدى الدعاة حس أمني يدركون فيها المصلحة والمفسدة المترتبة على الجهر والاستسرار في الدعوة، والتقدم والتأخر، والكلام في مواضيع دون أخرى، وهكذا حتى لا تستأصل شأفة الدعوة من أولها.

وقد كان الصحابة في العهد المكي القدوة في مثل ذلك. والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أولا: قصة أم جميل

عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: " يا أبا بكر إنا قليل ".

فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لامه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه ؟.

فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك.

فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك.

قالت: نعم.

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع.

قال: فلا شيء عليك منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو ؟ قالت: في دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه

على رسول الله ﷺ، قال فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله

وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار.

قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت.(١)

- **المستفاد من القصة:**

فنجد في هذا النص مدى الحس الأمني عند أم جميل حتى لا يقع النبي ﷺ في مكروه من قريش، وحتى لا يكون في الأمر مكيدة وهذا يتضح في الآتي:(٢)

١ . إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل، عن مكان الرسول ﷺ، أنكرت أنها تعرف أبا بكر ومحمد بن عبد الله.. فهذا تصرف حذر سليم. إذ لم تكن أم الخير ساعتئذ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تود أن تعلم به أم الخير.. وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان الرسول ﷺ مخافة أن تكون عينًا لقريش.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير – (ج ١ / ص ٤٣٩ . ٤٤١) وانظر سبل الهدى والرشاد – (ج ٢ / ص ٣١٩)

(٢) أنظر في ذلك "في السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحماية" (ص ٥٠ . ٥٢)

٢ . استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأم جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وفي ذات الوقت لم تظهر ذلك لأم الخير، إمعانًا في السرية والكتمان، فاستغلت الموقف لصالحها، قائلة: (إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت). وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء وحسن التصرف، فقولها: (إن كنت تحبين) وهي أمه، وقولها: (إلى ابنك)، ولم تقل لها إلى أبي بكر، كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما ترضخ لهذا الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: (نعم). وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

٣ . استغلال الموقف في كسب عطف العدو:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، الذي يظهر فيه صريعًا دنفًا، فأعلنت بالصياح، وسبت من قام بهذا الفعل بقولها: (إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر). فلا شك أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنّ شيئًا من الحب لأم جميل، وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٤ . الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة، عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها مازالت مشركة آنذاك، وبالتالي لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها سيدنا أبو بكر عن حال رسول الله ﷺ، فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها. فأخبرته ساعتها بأن الرسول ﷺ سالم صالح، وزيادة في الحيطة، والحذر، والتكتم، لم تخبره بمكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

٥. تخيّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكئ عليهما. فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرص كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلت أم جميل وأم الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات.

ثانيا: قصة إسلام عمر بن الخطاب وما فيها من الحس الأمني لدى الصحابة

قال ابن إسحاق: قال: وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل، كانت قد أسلمت، وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهم مستخفون بإسلامهم من عمر.

وكان نعيم بن عبدالله النحام، رجل من بنى عدى، قد أسلم أيضا مستخفيا بإسلامه من قومه.

وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين، من بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى عليه وسلم عمه حمزة وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

فلقيه نعيم بن عبدالله فقال: أين تريد يا عمر ؟ قال: أريد محمدا، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم

أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما وتابعا محمدا ﷺ على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عائدا إلى أخته فاطمة، وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها " طه " يقرئها إياها.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خباب عليها.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له: ما سمعت شيئا.

قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه.

وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وأرعوي، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرأون آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

وكان عمر كاتبا.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي.

وحلف بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا المطهرون.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها " طه ".

فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !.

فلما سمع ذلك خباب بن الأرت خرج إليه فقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.

فالله الله يا عمر.

فقال عند ذلك فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فإذا هو بعمر متوشح بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف.

فقال حمزة فأذن له: فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه.

فقال رسول ﷺ: إيذن له.

فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة، فقال: ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله.

قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أهل البيت أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم. (١)

- **المستفاد من قصة إسلام عمر رضي الله عنه:**

عند النظر في هذه القصة نجد فيها أكثر من موقف يدل على علو الحس الأمني عند الصحابة منها:

١ . نعيم بن عبد الله وحسه الأمني في الآتي (٢):

---

(١) جاءت قصة إسلام عمر من أوجه متعددة ذكرها ابن إسحاق، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٣/ ٧٩-٨٠-٨١). وفي السيرة النبوية (٣٤/٢)، وفي الروض الآنف للسهيلي (١١٩/٢) أخرجها كذلك أبو نعيم في "دلائل النبوة" رقم ١٩٢ عن ابن عباس، عن عمر، وذكر فيها أنه أسلم بعد حمزة بثلاثة أيام، وفي سند أبي نعيم ضعف، لكنه يتقوى بطرق ابن إسحاق.

وانظر "الإصابة" ٤/ ٣٧٠، و"فتح الباري" ٨/ ٤٧، و"الحلية" ١/ ٤٠، و"المواهب اللدنية" ١/ ٢٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر "في السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحماية" (ص ٥٣ . ٥٥)

أ. إخفاء الشخصية عن العدو:

لم يكن سيدنا عمر رضي الله عنه يعلم بإسلام نعيم، لأنه كان يخفي إسلامه، فحسبه سيدنا عمر مشركًا، مما سهل مهمة نعيم.. وإمعانًا في إخفاء الشخصية، قال سيدنا نعيم: محمدًا ولم يقل رسول الله، مع العلم أن الصحابة لا ينادون الرسول ﷺ باسمه، وإنما يقولون رسول الله، ونبي الله، ولكن المقام هنا يتطلب من نعيم أن يقول محمدًا، كي يطمئن له عمر، أكثر ويحدثه بما ينوي عمله، وهذا ما تم فعلاً.

ب. الحصول على المعلومة:

استوقف سيدنا نعيم سيدنا عمر لما رآه متوشحًا سيفه استوقفه، وسأله عن وجهته بقوله: أين تريد يا عمر؟ فحصل سيدنا نعيم من ثمّ على معلومة في غاية الخطورة، تتمثل في نية عمر قتل قائد الدعوة. فهذا تصرف في غاية الحكمة والذكاء، إذ استطاع سيدنا نعيم الحصول على هذه المعلومة التي جعلته يتخذ أساليب أمنية دقيقة وعاجلة كما سنرى.

ج. درء خطر العدو وصرفه عن هدفه:

بعد أن علم نعيم نية عمر رضي الله عنهما، عمل على درء هذا الخطر، فاستخدم معه أسلوب الترهيب، حيث هدده، إن هو أقدم على قتل محمد، فإنه سوف يُقتل هو أيضًا من قِبل بني عبد مناف، ولم يكتف سيدنا نعيم بذلك، بل أخبره بأمر لم يستطع سيدنا عمر معه صبرًا، وذلك حين أخبره

بإسلام ابن عمه وأخته، فغيَّر عمر رضي الله عنه وجهته مباشرة، وبدل أن يتجه لقتل محمد ﷺ اتجه نحو بيت أخته. وبذلك يكون سيدنا نعيم رضي الله عنه قد نجح فعلاً في درء خطر العدو، وصرفه عن هدفه الحقيقي، وهذا تصرف في غاية الدقة والإحكام.

د . التضحية بأفراد من أجل المصلحة العامة:

لا شك أن معرفة سيدنا عمر وعلمه بإسلام أخته وابن عمه يشكل خطورة كبيرة عليهما، ولكن إذا قورنت بخطورة قتل قائد الدعوة، كانت أخف وأقل، لذا حاول سيدنا نعيم أن يضحي بأفراد من أجل المصلحة العامة، فإذا لحق ضرر بسعيد وفاطمة فهو أخف وأهون بكثير مما يمكن أن يلحق بقائد الدعوة. هذا إلى جانب أن سيدنا نعيم راعى الناحية العاطفية التي تربط بين عمر وابن عمه وأخته، فهي يمكن أن تخفف من شدة الغضب لدى سيدنا عمر، وبالتالي تخف وطأة العقاب على سعيد وفاطمة، وهذا ما تحقق، فعندما رأى سيدنا عمر الدم ينزل من وجه أخته، تحركت فيه العاطفة، ورقّ قلبه، فكان ذلك من أسباب إسلامه. اهـ

٢ . خباب بن الأرت وحسه الأمني في الآتي:

أ . حرصه على التخفي في دعوته حتى لا يراه أحد

وهذا ما كان يفعله مع فاطمة بنت الخطاب وزوجها، برغم أنه كان يعلم أن أخا فاطمة هو عمر بن الخطاب، وما أدراك ما عمر ؟ !!

ب . هدفه الأساسي هو تبليغ دعوة الله تعالى

وليس هدفه هو الشهرة، أو المكانة، فمن يريد ذلك لا يدعو خفية من الناس، وإنما يحاول الظهور حتى يشار إليه بالبنان، فحرصه على دعوة الله جعله يقدم المصلحة في انتشار الدعوة عن مصلحته الشخصية.

٣ . فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد وحسهما الأمني:

أ . إخفاء إسلامها عن عمر

لم يشهرا إسلامهما خشية أن يعرف عمر فيلحق الضرر برسول الله ﷺ فكانا يخفيان خباب بن الأرت في بيتهما حين يأتي إليها ليعلمهما القرآن

ب . ترك الذهاب إلى رسول الله

لم يذهبا إلى رسول الله ﷺ ليتعلما منه مباشرة، وهذا يدلنا على تقديم مصلحة مقابلة الشيخ أو الداعية في بلد يخاف على أهل التوحيد فيها من بطش الظالمين على متعته بسماعه من الشيخ مباشرة.

المبحث الثالث

الحيطة والحذر في هجرة النبيﷺ إلى المدينة

أولا: قصة الهجرة:

وهذا يبدو واضحا في الترتيبات التي اتخذها رسول الله ﷺ حين أخفى أمر الهجرة عن الناس وأتى بعلي بن أبي طالب لينام في فراشه تمويها على أعين أهل مكة. ولم يشرع النبي ﷺ في الهجرة إلا بعد بنى أصحابه قاعدة قوية في المدينة، وبعد أن أمن النبي ﷺ في مبايعة أهل العقبة على الحماية التامة لهم.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى فقال له: « أقم ». فقال: يا رسول الله أتطمع أن يؤذن لك فكان رسول الله ﷺ يقول « إني لأرجو ذلك ». قالت: فانتظره أبو بكر فأتاه رسول الله ﷺ ذات يوم ظهرا فناداه فقال: « أخرج من عندك ». فقال أبو بكر: إنما هما ابنتاي فقال: « أشعرت أنه قد أذن لي في الخروج ». فقال: يا رسول الله الصحبة. فقال النبي ﷺ: « الصحبة » قال: يا رسول الله عندي ناقتان قد كنت أعددتهما للخروج فأعطى النبي ﷺ إحداهما – وهي الجدعاء –، فركبا فانطلقا حتى أتيا الغار – وهو بثور –، فتواريا فيه، فكان عامر بن فهيرة – غلاما لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة

أخي عائشة لأمها – وكانت لأبي بكر منحة فكان يروح بها ويغدو عليهم ويصبح فيدلج إليهما ثم يسرح فلا يفطن به أحد من الرعاء فلما خرج خرج معهما يعقبانه حتى قدما المدينة فقتل عامر بن فهيرة يوم بئر معونة.(١)

وفي رواية أخرى للبخاري قالت عائشة: فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: « أخرج من عندك ». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله قال: « فإني قد أذن لي في الخروج ». فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله ؟

قال رسول الله ﷺ: « نعم ».

قال أبو بكر: فخذ – بأبي أنت يا رسول الله – إحدى راحلتي هاتين قال رسول الله ﷺ: « بالثمن ».

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب – فبذلك سميت ذات النطاقين– قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار

(١) البخاري (٣٨٦٦)

في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر – وهو غلام شاب ثقف لقن، –فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت؛ فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما؛ حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ي، فعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي؛ هاديا خريتا – والخريت: الماهر بالهداية – قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي – وهو على دين كفار قريش – فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.)[1]

فعند النظر في هذه الحكاية نرى مدى الحذر والحيطة التي اتخذها النبي ﷺ حتى يخرج سالما من مكة برغم أن الله تعالى قد وعده النصر والتمكين.

ثانيا: الخطوات المستفادة من الهجرة في هذا الشأن

" فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ وشرع النبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ

(١) البخاري (٣٦٩٢)

الآتي:

١ . وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلا:

أ- جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شديد الحر- الوقت الذي لا يخرج فيه أحد- بل من عادته لم يكن يأتي فيه، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ب- إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم[١].

ج- أمر ﷺ أبا بكر أن يُخرِج مَنْ عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

د – وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفي في بيت أبي بكر[٢].

هـ- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[٣].

٢ . انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة، (ص١٤١).
(٢) انظر: معين السيرة، (ص١٤٧).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، (ص٣٦١).

يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

٣ . وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

٤ . فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول ﷺ حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول ﷺ فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً، مسجى في بردته في حين النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٥ . تدبر احتياجات الرحلة

ونرى احتياجات الرحلة قد دبرت تدبيرا محكما:

أ- علي: رضي الله عنه ينام في فراش الرسول ﷺ ليخدع القوم، ويُسلَّم الودائع ويلحق بالرسول.

ب- وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

جـ- وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين بحثاً عن محمد ﷺ ليقتلوه.

د- وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كيلا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

هـ- وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير،

ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة أخذًا قويًّا حسب استطاعته وقدرته.. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة[1].

(١) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، (ص٣٩٣: ٣٩٧). وانظر السيرة النبوية لمحمد على الصلابي (٣٣٨/١، ٣٣٩)

الفصل السابع

التركيز على تعليم الناس التوحيد والأخلاق

تمهيد

إن الانشغال بالمخالف والرد عليه مهلكة للوقت والجهد دون تحقيق الفائدة المرجوة من دعوة الحق، ولكن الانشغال الأهم هو تبليغ الحق للناس مع عدم إهمال الرد على المخالف، وهذا هو الذي اتبعه النبي ﷺ، فقام بدعوة الناس إلى التوحيد وتصحيح الاعتقاد، وتربية أصحابه على عبادة ربهم والأخلاق الحميدة.

فعندما يرى المخالف دعوة الحق في استمرار دون تعطيل تساء حالته النفسية ويبدأ في الانهيار وترك طرح الشبهات، وعند الصبر عليه وعلى إيذائه يزهق باطلة ولا يستطيع التواصل في غله وحقده، فالله تبارك وتعالى قد قال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾[الأنبياء: ١٨]

إن العقيدة الصحيحة السليمة والدين الإسلامي العظيم لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن، وفي التأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقوداً من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة في مدة قصيرة، بمجرد التمسك بها والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة، وتآخوا معهم في مثالية نادرة، لا تزال مثار الدهشة ومضرب المثل،

ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر، فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمر نحو تزكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة[1].

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، (ص٤٠٥).

المبحث لأول

التوحيد والعقيدة

لقد حرص النبي ﷺ منذ البداية على نبذ الشرك والوثنية التي يرزح فيها أهل مكة والقبائل المحيطة بها، وتصحيح عقائدهم في توحيد الله تعالى فكانت دعوته إلى النطق بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

والعربي بفصاحته ولغته يدرك معنى هذه الكلمة، وأن لها لوازم وشروط عند النطق بها وإلا كان النطق بها عبثا لا قيمة له.

فأول موقف كان للنبي ﷺ حين أمر بالجهر بالدعوة ودعوة المقربين من عشيرته:

ففي صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا)[1]

(١) مسلم (٣٠٥)

وروى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن شَيْخٌ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ تُفْلِحُوا.

قَالَ: وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! لا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ؛ فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ وَتَتْرُكُوا اللاتَ وَالْعُزَّى، قَالَ: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ)[١]

- **تصور الصحابة لله قبل البعثة وتربية النبي ﷺ**

كان تصور الصحابة –رضي الله عنهم– لله قبل البعثة تصورًا فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠] فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وإيضاحها للناس أجمعين، ذلك ببيان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره، واليوم الآخر وإثبات الرسالة للرسل عليهم السلام، والإيمان بكل ما أخبروا به[٢].

وتربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم على فهم صفات الله وأسمائه الحسنى، وعبدوه بمقتضاها فَعَظُم الله في نفوسهم، وأصبح رضاه سبحانه

(١) أحمد في مسنده (١٦٦٠٣٩)

(٢) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، علي العلياني (ص٤٧).

غاية مقصدهم وسعيهم، واستشعروا مراقبته لهم في كل الأوقات [١].

إن التربية النبوية الرشيدة للأفراد على التوحيد هي الأساس الذي قام عليه البناء الإسلامي وهي المنهجية الصحيحة التي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل.

وقد آتت تربية الرسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة، فتطهر الصحابة في الجملة مما يضاد توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده ولم يطيعوا غير الله، ولم يتبعوا أحدًا على غير مرضاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يذبحوا إلا لله، ولم ينذروا إلا لله، ولم يستغيثوا إلا بالله ولم يستعينوا- فيما لا يقدر عليه إلا الله- إلا بالله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا أو يحجوا أو يطوفوا أو يتعبدوا إلا لله وحده، ولم يشبهوا الله لا بالمخلوقات ولا بالمعدومات بل نزهوه غاية التنزيه [٢].

وكما رسَّخ القرآن المكي في قلوب الصحابة رضي الله عنهم العقيدة الصحيحة، حول التوحيد بأنواع، وحول الرسول ﷺ والرسالة، صحح عقيدتهم حول سائر أركان الإيمان الأخرى.

- **وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة:**

ركز القرآن المكي على اليوم الآخر غاية التركيز، فقل أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين وأحوال

(١) انظر:المصدر السابق، (ص ٥٣).

(٢) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، (ص٥٤، ٥٥).

المعذبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم وحتى لكأن الإنسان ينظر إلى يوم القيامة رأي العين.

١- الجنة لا مثيل لها:

وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة وواصفة للجنة، بما لا يمكن أن يكون له مثيل في الكون، فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيما تأثير.

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين، نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى عز وجل شيئًا من نعيمها، إلا أنه ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦-١٧].

٢- أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» وجاء في رواية أخرى: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[يونس: ٢٦][1].

إن التصور البديع للجنان والاعتقاد الجازم بها مهم في نهضة أمتنا، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمة، يندفعون لمرضات الله تعالى

(١) مشكاة المصابيح للبغوي (٣/٨٨).

ويقدمون الغالي والنفيس ويتخلصون من الوهن وكراهة الموت، وتتفجر في نفوسهم طاقات هائلة تمدهم بعزيمة وإصرار، ومثابرة على إعزاز دين الله.

- **وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة:**

كان الصحابة يخافون الله تعالى ويخشونه ويرجونه، وكانت لتربية الرسول ﷺ أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله ﷺ يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة؛ لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ومعالمها، من قبض الأرض ودكها، وطي السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم، وصَّور القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم وإحباط أعمالهم، وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين [(١)] وكان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصحابة، وصور القرآن الكريم ألوان العذاب في النار فأصبح الرعيل الأول يراها رأي العين.

- **مفهوم القضاء والقدر وأثره في تربية الصحابة رضي الله عنهم:**

اهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، وكان ﷺ يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر.

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص٤٠٢)

فكان للفهم الصحيح، والاعتقاد الراسخ في قلوب الصحابة لحقيقة القضاء والقدر، ثمار نافعة ومفيدة، عادت عليهم بخيرات الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات:

١- أداء عبادة الله عز وجل.

٢- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك؛ لأن المؤمن يعتقد أن النافع والضار، والمعز والمذل، والرافع والخافض هو الله وحده سبحانه وتعالى.

٣- الشجاعة والإقدام، فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون أن الآجال بيد الله تعالى وأن لكل نفس كتابًا.

٤- الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب.

٥- سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال.

٦- عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين.

إن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرسول ﷺ لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان الستة المتقدمة، بل صحح عندهم كثيرًا من المفاهيم والتصورات والاعتقادات، عن الإنسان والحياة والكون والعلاقة بينهما، ليسير المسلم على نور من الله، يدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق، ويتحرر من الوهم والخرافات[1].

(١) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، (ص٥٩).

- **معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان:**

إن القرآن الكريم عرَّف الإنسان بنفسه بعد أن عرفه بربه وباليوم الآخر، ويجيب على تساؤلات الفطرة، من أين؟، وإلى أين؟؛ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كل إنسان سوي، وتلح في طلب الجواب[١].

وبين القرآن الكريم للصحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانية وأصولهم التي يرجعون إليها، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة. وما هو مصيرهم بعد الموت.

- **تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام:**

كان رسول الله ﷺ من خلال المنهج القرآني، يحدثهم عن قصة الشيطان مع آدم ويشرح لهم حقيقة الصراع بين الإنسان مع عدوه اللدود، الذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام من خلال الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٧].

كانت الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم وصراعه مع الشيطان، قد علمت الرعيل الأول قضايا مهمة في مجال التصور والاعتقاد والأخلاق فمنها:

١- أن آدم هو أصل البشر.

٢- جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله.

٣- قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة.

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، (٢/٥٤).

٤- خطيئة آدم تعلم المسلم ضرورة التوكل على ربه.
٥- ضرورة التوبة والاستغفار.
٦- الاحتراز من الحسد والكبر.
٧- إبليس هو العدو الأول لآدم وزوجه وذريتهما.

من الوسائل التي استخدمها الصحابة الكرام لمحاربة الشيطان، التخاطب بأحسن الكلام امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[الإسراء: ٥٣].

هذه صورة موجزة عن حقيقة إبليس وتصور الصحابة رضي الله عنهم لهذا العدو اللعين.

- **نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات:**

ظل رسول الله ﷺ يعلم الصحابة كتاب الله تعالى ويربيهم على التصور الصحيح، في قضايا العقائد، والنظر السليم للكون والحياة من خلال الآيات القرآنية الكريمة، فبين بدء الكون ومصيره. وقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان، لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي قررها في كل جوانب الكون والحياة.

وهكذا نظم القرآن الكريم أفكار وتصورات الرعيل الأول عن الكون وما فيه من مخلوقات وعجائب، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية، واستمر النبي ﷺ في غرس حقيقة المصير، وسبيل النجاة في نفوس أصحابه، موقنًا أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك السبيل، حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز، وركز ﷺ

في هذا البيان على جانب مهم هو:

أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير.

إن كثيرا من العاملين في مجال الدعوة بهتت في نفوسهم حقيقة أن الدنيا لهو ولعب وغرور، لأنهم انغمسوا في هذه الحياة الدنيا ومتاعها، وشغفتهم حبا، فهم يلهثون وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيد، فهو لا يشبع ولا يقنع، بسبب التصاقه بالدنيا وإنها لكارثة عظيمة على الدعوة والنهوض بالأمة، أما التمتع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشرع واتخاذها مطية للآخرة، فذلك فعل محمود.[1]

فهذا البناء العقائدي الذي ربى النبي ﷺ الصحابة عليه كان له أكبر الأثر في تحطيم معنويات المخالف من أهل الكفر عندما رأوا تهاوى معبوداتهم الباطلة لا تملك نفعا ولا ضرا أمام إهانة من يدخلون في الإسلام لها، وهم بسذاجتهم كانوا ينتظرون انتقام هذه الآلهة من هؤلاء الذين تركوا عبادتهم وعبدوا الواحد القهار.

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – (ج ١ / ص ١٢٧ . ١٣٢) بتصرف

المبحث الثاني

التربية العبادية والأخلاقية

إن الرسالة المحمدية غايتها هو إصلاح العلاقة بين العباد وربهم وفق منهج صحيح متلقى من عند الله تعالى، وهذا ما حرص عليه النبيﷺ، وكذلك كانت أخلاق العرب في الجاهلية يشوبها كثير من الأخلاق السيئة برغم وجود بعض الأخلاق الحميدة، فكان الزنا منتشرا، وكان الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، واحتقار الناس.

وقد لخصت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها هذه الرسالة في كلمات معدودة فقالت لرسول الله ﷺ حين قال لها: لقد خشيت على نفسي: (كلا والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)

هذه هي جملة الأخلاق التي ربى النبي ﷺ عليها أصحابه.

وقد قال ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم – و في رواية: صالح – الأخلاق)[1] والقرآن المكي قد أنزل فيه الحث على كثير من الأخلاق من خلال قصص السابقين، ومن خلال الأمر والنهي.

إن الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق وقد ربى رسول الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق بأساليب

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وحسنه الألباني (انظر السلسلة الصحيحة (٧٥/١)

متنوعة.

قال الإمام البخاري في صحيحه:

(باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل)

وقال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس وأجود ما يكون في رمضان وقال أبو ذر لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله فرجع فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق. اهـ

وروى مسلم عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله – ﷺ– عن البر والإثم فقال: « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس ».[(١)]

فعن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء»[(٢)].

وسئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»[(٣)].

إن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب، إنما

---

(١) مسلم (٦٦٨٠)

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٠٠٢) من حديث أبي الدرداء وقال: «حسن صحيح». وأخرجه أبوداود (٤٨٠١) وصححه الألباني

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وقال: «صحيح غريب». وحسنه الألباني

هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك[١]؟

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا والأمثلة على ذلك كثيرة[٢].

لقد تربى الصحابة رضي الله عنهم على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق[٣]، فكانت أخلاق الصحابة ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة وغرضها رضوان الله ومثوبته.

إن الأخلاق في التربية النبوية شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق، هي: الخشوع، والكلام له أخلاق، هي: الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق، هي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق، هي: التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق، هي: أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق، هي: العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق، هي: الانتصار أي رد العدوان، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست

(١) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب، (ص١٣٠).

(٢) انظر آيات سورة (المؤمنون – الآيات: ١-١١)، وسورة (الأنعام- الآيات: ١٥١- ١٥٣)، وسورة (الرعد- الآيات: ١٩-٢٢) وسورة (الإسراء – الآيات: ٢٣-٣٨) وغيرها.

(٣) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص٥٩١).

له دلالة أخلاقية مصاحبة.

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سورة الإسراء مدحًا وذمًا؛ لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن أتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء، والجدل بالباطل مغالبة وتطالعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلها –وأمثالها– أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعد ما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها. (١)

فإن المخالف حين تدنو أخلاقه والمؤمن تعلو أخلاقه يدرك المؤمن مدى سفاهة المخالف وحماقته، ويدرك المخالف لو كان عاقلا مدى روعة الحق وحلاوته، فلا يقابل حسن الخلق إلا بالذل والصغار أو التوبة والرجوع. وكم من شخص أثر في مجتمع بحسن خلقه وتعامله، وكم من شخص أفسد أقواما بسوء خلقه وجداله وحماقته.

ولقد ضربنا مثالا على ذلك من سيرة النبي ﷺ، حين جاءه عتبة بن ربيعة يعرض عليه المال والملك والجاه والسلطان، وكيف قابله النبي ﷺ بغاية

(١) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث – (ج ١ / ص ١٣٦، ١٣٧) بتصرف وزيادة

الأدب، فلم يعنفه ولم يشتمه ولم يعبث في وجه ولم يقاطعه في كلامه، ولم يجادله، وإنما تلا عليه آيات من كتاب الله فقط وتركه وما يختار.

فكان ﷺ الطبيب لهؤلاء المرضى، وحق على الطبيب أن يتسع صدره لمريضه حتى يبلغ الدواء مداه، إما أن يؤتي ثماره بإذن الله فيكون الشفاء، وإما أن لا يؤت ثماره لعلم الله تعالى فيه فقد بلغ ما أنزل إليه من ربه.

وقد ظهرت ثمار هذه التربية حين وقف جعفر بن أبي طلب أمام النجاشي يقول له:

(أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله

تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.)

الفصل الثامن

وسائل أخرى

هناك العديد من الوسائل التي اتخذها النبيﷺ وأصحابه في التعامل مع المخالف نذكر بعضها باختصار حرصا على عدم التطويل.

المبحث الأول

عدم العنف في التعامل رغم المقدرة على ذلك إلا في حالات نادرة

أولا: نظرة عامة على اللين والرفق

اتسمت دعوة النبي ﷺ منذ البداية باللين والرفق والحرص على نفع الناس، كيف وقد وصفه اله تبارك وتعالى بأبلغ وصف فقال سبحانه وتعالى في سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾[القلم:٤]

وكان أهل مكة قوم لا يقبلون عنفا من أحد، فهم أصحاب عزة وأنفة، ولذلك لم يلجأ النبي ﷺ إلى العنف في التعامل معهم، فالعنف لا يولد إلا نفورا وبعدا وعصبية. وقد كان ﷺ يحث دائما على الرفق واللين في التعامل مع البشر.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم

قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة

قالت: فقال رسول الله ﷺ: (مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله). فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟

قال رسول الله ﷺ: (قد قلت وعليكم)[1]

---

(١) البخاري (٥٦٧٨)

وروى مسلم عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِى عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِى عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِى عَلَى مَا سِوَاهُ »(١).

هذا هو منهج رسول اللهﷺ في دعوته للناس وتعامله معهم، كان الأَّصل هو الرفق واللين، والاستثناء هو الشدة والعنف على حسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية. وفي عصرنا رأينا أناس قد عكسوا القضية، فصار العنف والشدة والقسوة هي الأصل في التعامل مع المخالف، واللين لا يوجد حتى استثناء. فشانوا أنفسهم وأعمالهم كما روى مسلم في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »(٢).

ولقد مدح الله تبارك وتعالى نبيه بصفة اللين فقال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾[آل عمران:١٥٩]

وكذلك من قبل نبينا كان هذا منهج الأنبياء في دعوتهم، وهذا مثالان على ذلك:

---

(١) مسلم (٦٧٦٦)

(٢) مسلم (٦٧٦٧)

المثال الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام يدعو ربه بكل رفق ولين وشفقة عليه كما جاء في سورة مريم حيث قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾[مريم:٤١-٤٨]

والمثال الثاني: نبي الله موسى عليه السلام حين أرسله الله لدعوة عدو الله فرعون قال سبحانه في سورة طه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾[طه: ٤٣،٤٤]

ثانيا: من مواقف النبي ﷺ في اللين والرفق في العهد المكي

كما ذكرنا أن دعوة النبي ﷺ كانت مبنية على اللين والرفق مع أهل مكة ،لكن نذكر بعض المواقف للنبي ﷺ في ذلك:

الموقف الأول: النبي مع عتبة بن ربيعة

كما ذكرنا سابقا قصة عتبة بن ربيعة مع النبي ﷺ وعرض الملك عليه والمال والجاه. فقابله النبي ﷺ بكل رفق ولين دون عنف أو ازدراء فبعد أن انتهى من كلامه عتبة قال له رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد ؟

الموقف الثاني: النبيﷺ في مرض عمه أبي طالب

وعند موت عمه أبي طالب تكلم النبيﷺ بكل لين ورفق

عن ابن عباس قال: لما أن مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل قال: فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته ! فبعث إليه . أو قال جاء النبي ﷺ . فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل إن جلس النبي ﷺ إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب في ذلك المجلس ولم يجد النبيﷺ مجلسا قرب عمه إلا عند الباب، قال أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل

قال: فأكثروا عليه من اللوم، قال: فتكلم النبيﷺ فقال: يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية

قال: ففزعوا لكلمته ولقوله، قال: فقال القوم: كلمة واحدة !! نعم وأبيك وعشرا

قال: وما هي ؟، قال أبو طالب: ونصف كلمة هي يا ابن أخي

قال: لا إله إلا الله

قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]

قال: وقرأ من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[ص: ٨][(١)]

برغم من كل ما وجده منهم ﷺ فهو يخاف عليهم من عذاب الله تعالى، ويعرض عليهم الملك والجاه والسلطان إن هم دخلوا في دين الله تعالى؛ لكن أبى القوم إلا الإعراض والكفر، وأراد النبيﷺ من عمه وكله شوق إلى دخوله في دين الله تعالى بأن يقول كلمة التوحيد ويموت عليها لكن إرادة الله فوق كل شئ. فلا يملك هداية التوفيق إلا الله سبحانه وتعالى.

فعن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٢/٧) والمقدسي في الأحاديث المختارة (٤١٧)

كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦] (١)

ثالثا: بعض مواقف الشدة من النبي ﷺ

المواقف الأول: النبي يتوعد أهل مكة بالذبح

لم كثر منهم اللغط وتكرار الاستهزاء أراد رسول الله ﷺ أن يذكرهم بما يخيفهم لكنهم أصروا على إيذائه فقد روى ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو، قال: قلت: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله ﷺ، فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: قد حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، فبينا هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فمر بهم طائفا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: وعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى ﷺ، فمر بهم الثالثة، غمزوه بمثلها، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح». قال: فأخذت القوم

(١) البخاري (٤٧٧٢) ومسلم (٢٤)

كلمته حتى ما منهم رجل إلا لكأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك يتوقاه بأحسن ما يجيب من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدا، فوالله ما كنت جهولا. فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، وبينا هم في ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا – لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم ؟ قال: « نعم، أنا الذي أقول ذلك ». قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقال وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط [1]

وهذا من أعنف المواقف التي فعلها النبي ﷺ مع أهل مكة، لم يكن فيها سلاح ولا ضرب بالأيدي ولا غير ذلك. وكان صادقا في كلامه منذرا إياهم من مخالفته. وقد أتى ثماره في الحال وارتدع أهل مكة.

الموقف الثاني: النبي ﷺ يدعو على صناديد قريش

جاء في صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ

(١) حسن: ابن حبان في صحيحه (٦٦٨٧)وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤١٤٨)، وأخرجه أبو يعلى في مسنده من طريق آخر عن ابن عمرو به، وابن أبي شيبة من نفس طريق أبي يعلى.

أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام فَأَخَذَتْ مِنْ ظَهْرِهِ وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلا مِنْ قُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أُمَيَّةَ أَوْ أُبَيٍّ فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلا ضَخْمًا فَلَمَّا جَرُّوهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ قَبْلَ أَنْ يُلْقَى فِي الْبِئْرِ.(١)

وهكذا كانت الحكمة التي أمر الله تعالى بها في الدعوة إلى الله حيث قال سبحانه في سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾[النحل:١٢٥]

فاللين في موضعه والشدة في موضعها هذه هي الحكمة التي كان يتعامل بها رسول الله ﷺ. مع المؤمن ومع الكافر ومع العاصي

(١) البخاري (٢٩٤٨)

المبحث الثاني

إنزال الناس منازلهم

الداعي إلى الله تعالى والذي يتعامل مع مخالفه لابد من مراعاة الصفات النفسية لكل إنسان، فكل من له مكانة في قومه أو عمله يحب أن يعامل من خلال هذه المكانة لا من التقليل منه، لأن معاملته في غير مكانته يعتبرها المخالف تحقيرا له.

فالضابط والدكتور والطبيب والوزير والرئيس غيرهما يعاملوا من مكانتهم.

وهدي النبي ﷺ في العهد المكي والمدني كان دائما ما ينزل الناس منازلهم، برغم أنه لا يفرق بين عبد وحر وأسود أبيض كما قدمنا.

فكان النبي ﷺ يناديهم بألقابهم بلطف ولين وإظهار الاحترام لهم طمعا في إسلامهم فقد أخرج الترمذي (٣٣٣١) عن عائشة قالت: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾[عبس:١] في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول أترى بما أقول بأسا فيقول لا ففي هذا أنزل.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه قال أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة.(١)

فكان اهتمام النبي ﷺ بهم اهتماما زائدا حتى عبس في وجه ابن أم مكتوم فعاتبه ربه لذلك. فنزلت هذه الآيات من سورة عبس.

وللنظر إلى موقف النبي ﷺ من عتبة بن ربيعة وكيف قابله النبي ﷺ بكل تقدير واحترام وخاطبه بكنيته: أبو الوليد.

وهكذا كان النبي ﷺ القدوة الطيبة في ذلك يراعي تفاوت المدارك عند الناس، ويقدّر اختلاف قدراتهم الفطرية ومواهبهم المكتسبة، ومن ثَمّ كان يخاطب كل إنسان بما يناسب عقله وفهمه وإدراكه، ويعطيه من العلم أو الجواب على سؤاله ما يلائم بيئته وطبيعته وفطرته ونفسيته، ومن ثَمّ يكون مقنعاً له بحيث كان النبي ﷺ يفهمُ عليه أهلُ البادية وأهل الحضر وأهل القرية والريف وكلّ مَنْ يتحدّث معه.

ومن مخاطبة الناس على قدر عقولهم كان النبيّ ﷺ يخاطب الناس بلغاتهم ولهجاتهم أحياناً؛ وذلك ليقرّب مفهوم الحديث ومعناه الذي يريد توصيله إليهم؛ كما روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٢٣٦٧٩) من حديث

(١) وصحح إسناده الألباني كما في صحيح سنن الترمذي

عاصم الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليس من أَمْبِر أَمْصِيام في أَمْسَفر".

وهذا الكلام في لغة الأشعريين حيث يقلبون اللام من أل التعريف ميماً، والمراد بذلك أصل الرواية وهي قول النبي ﷺ: "ليس من البِرّ الصيامُ في السفر" (١)

(١) أخرجه البخاري (١٨١٠) من حديث جابر بن عبد الله

المبحث الثالث

ترك السياسة

قال أحد العلماء المعاصرين: من السياسة ترك السياسة.

أولا: معنى السياسة

١ ـ في اللغة:

السِّياسة: فعل السائس الذي يسوس الدّوابَّ سياسةً، يقوم عليها ويروضها. والوالي يَسُوس الرَّعيّةَ أَمْرَهم.[١]

٢ ـ في الاصطلاح:

قال ابن القيم رحمه الله:

قال ابن عقيل في الفنون: جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية: أنه هو الحزم، ولا يخلو من القول به إمام.

فقال شافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

فقال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك: " إلا ما وافق الشرع " أي لم يخالف ما نطق به الشرع: فصحيح.

---

(١) العين للخليل (ج ٢ / ص ٨١)

وإن أردت: لا سياسة إلا ما نطق به الشرع: فغلط، وتغليط للصحابة فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف.

فإنه كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة، وتحريق علي رضي الله عنه الزنادقة في الأخاديد وقال: لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا ونفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنصر بن حجاج.ا هـ.[1]

ثانيا: المقصود من المبحث

والمقصود من المبحث هو ترك مزاحمة أهل السياسة في سياستهم حتى لا تأتي على الدعوة بالدمار والخراب، وليس معناه أن السياسة ليست من الدين كما يقول (العلمانيون)؛ بل المقصود: هو أن الداعية إلى الحق لا يدنس هذه الدعوة بألاعيب السياسية المعاصرة، فإن السياسة الشرعية غير السياسية العلمانية التي تدور حول الغش والخداع والكذب والنفاق. والقوي بنفوذه وفكره وماله يأكل الأضعف منه دون مراعاة لحدود الشرع.ودون مراعاة لقيم أو مبادئ.

ففي هذا العصر الذي بعد الناس وخاصة الحكام إلا من رحم ربك عن شرع الله وأشربوا مبادئ السياسة الغربية فيجب التعامل معهم بمبدأ النصح والإرشاد والتقويم، لا بمبدئ المزاحمة.

---

(١) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية- (ص ١٦)

لأن المزاحمة تضطر المسلم أن يفعل مثلما يفعلوا ويتآمر مثلما يتآمرون، ويكذب مثلما يكذبون، ويوقع بخصمه مثلما يفعلون. لا يراعون إلا ولا ذمة، ولا حلال ولا حرام. يسير مبدؤهم على طريقة ميكافيلي: الغاية تبرر الوسيلة.

فغاية السياسي في الوقت المعاصر الاستحواذ على المنصب والمكانة لا تطبيق شرع ولا خدمة قوم، ولا طريق له غير المكر والخداع والكذب والنفاق.

فإن النبي ﷺ لم يزاحم قريشا في سياستهم ولا في ملكهم، حتى أنهم لما عرضوا عليه ذلك رفض حتى لا يظنوا أنه يريد الملك والرئاسة. لأن سياستهم لم تكن قائمة على خلق ولا دين ولا مبدأ غير مبادئ الشر. عدى حلف الفضول الذي شهده النبي ﷺ .

ولذلك اعتزل النبي ﷺ سياستهم ولم يقرب منها. وهكذا في عصرنا على المسلم أن يعتزل هذه السياسات ولا يقترب منها لئلا يكتوي بنارها ويشرب حبها ويغرق في براثنها فلا ينجوا من مغبتها. ويخسر الدنيا والآخرة. ولكن عليه أن يسلك ما سلك رسول الله ﷺ من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وصرف الناس عن عبادة الأوثان إلى توحيد الله وترسيخ هذا المفهوم في قلوب الناس، وليعلم المؤمن أن نصر الله آتي لا محالة قال تعالى في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ

فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾[الحج: ٤٠،٤١]

كلمات للشيخ عائض القرني في السياسة:

وما أجمل ما قاله الشيخ عائض القرني في مقاماته عن هذه السياسة:

مالك في ديار السياسة تحوس، اهرب من ساس يسوس، أما علمت أن وجهها منحوس، ورأسها منكوس، وهي التي قطعت الرؤوس، وأزهقت النفوس، وضيّعت الفلوس، وحملت الناس على اليمين الغموس، طريقها معكوس، وعلى جبينها عبوس، سودت الطروس، وكسرت التروس، وخلعت الضروس، كسفت من أجلها شموس، وفتحت بظلمها حبوس، وقطعت بجورها غروس، كانت الدنيا قبلها عروس، وهي التي عطلت الناموس، وأباحت المحرمات للمجوس.

لا تل الأحكام وإن هموا سألوا

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام وهذا إن عدل

عقرت هارون الرشيد في طرطوس، وقتلت محمد بن حميد في طوس، واجتاح بها ديار الإسلام أهل البوق والناقوس، إذا أقبلت تدوس، وإذا أدبرت تحوس، بذريعتها لعب الأمريكان في العالم والرُّوس، تدبّ في القلوب كالسوس، وتختفي في العقول كالجاسوس، عاشقها يتخبطه الشيطان كأنه ممسوس، أشار

إليها الحسين فخطفت رأسه، ومازحها الحجاج فخلعت أضراسه، وداعبها أبو مسلم فأحرقت لباسَه، وزارها مصعب فقتلته وحراسه، وأحبها يزيد فقطعت أنفاسه، وصافحها المختار فمزقت أحلاسه، وأحبها المهلب فاقتلعت أساسه، وعشقها المتوكل فسلطت عليه جُلاّسه، وشربها القاهر فكسرت عليه كأسه، وعانقها ابن الزيات فأحرقت قرطاسه، وجالسها ابن المقفع فأبطلت قياسه، كم من ذكي ضيعت مراسه، وكم من غبي أخرجت وسواسه، السياسة بالنفاق نجاسة، وبالغباء تياسة، وبالغدر تعاسة، وبالجور خساسة، وبالظلم شراسة، اجتنبها أهل الكياسة، ومات في حبها أهل الرياسة، بذلوا في حبها الدين والحماسة، وما حصلوا إلا على التعاسة، تقاتلوا عليها حسداً ونفاسة، قُتل البرامكة لأجلها بحجة عباس وعباسة، فأصبحوا بعد الملك خبراً في كراسة، وبعد الوزارة دفتراً على ماصة، هي الوسواسة، الخناسة، تذهب بالنجابة والكياسة، وكم من شجاع أذهبت باسه، وعقرت أفراسه، أهلها يُسمّون ساسة، كل منهم قد حمل على أخيه فاسه.

سعيد النورسي، بالسياسة نسي، لينين واستالين، قتلوا بالسياسة الملايين، فكتبوا في تاريخ الملاعين، هولاكو الغازي، وهتلر النازي، قتلوا باسم السياسة الإنسانية فأصبحوا في الخانة المنسية.

الكلب أكرم عشرة

من معشر طلبوا الرئاسة... وهو النهاية في الخساسه

قبل تحقيق الرئاسه

كسر كسرى بالسياسة ظهور أهل فارس، فقيل له: لم فعلت ذلك ؟ فقال: ساس يسوس فهو سائس، وقصّر قيصر بالسياسة أعناق الروم، فقيل له لم هذا الصنيع يا محروم ؟ فقال: أردت إصلاح البلاد، ورحمة العباد.

كدعواك كل يدعي صحة العقل... ومن الذي يدري بما فيه من جهل

بقنابل سياسة العميان، دمرت اليابان، وقتل الصرب الألبان، واحتل الروس الأفغان، وجلد المستضعفين شاه إيران، واعتدى الألمان على الجيران. لكن ذكر كل كافر بربه، آية: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾[العنكبوت:٤٠].

وكل ما سبق حديثٌ عن السياسة الفاجرة الكافرة، الساحرة الساخرة.

وهي السياسة البدعيّة، القائمة على ظلم الرعيّة، وإهدار الحقوق المرعيّة، من رأسمالية، وبعثية، ونازية، وشيوعية، وصان الله من ذلك السياسة الشرعية، لأن السياسة الشرعية رحمة بالبشر، واتباع للأثر، ومحاربة من كفر، وردع من فجر، وهي التي على دستور عمر، إمام السياسة الشرعية الرسول، أعدل العدول، وأفقه الناس في المنقول والمعقول، وصاحبه الصديق، بالأمة رفيق، له عهد مع العدل وثيق، وقلب من التقى رقيق، وتلميذه عمر الذي كان وهو خليفة يئن من الجوع، ويلبس المرقوع، وتغلبه الدموع، أولئك هم الناس، وبهم يضرب القياس، ويحل الأمن ويدفع الباس.

وليس لمن خالفهم إلا الإفلاس، والابتئاس، والاتعاس، ليت السيوف الحداد، لا تعاون أهل الفساد، في ظلم العباد، فبسياسة الجور والعناد، قتل الحسين بسيف ابن زياد. بأيّ سياسة يُكرم جهلة الأنباط، وتدفع الجوائز لأهل الانحطاط، ويُجلد أحمد بن حنبل بالسياط، على البلاط:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة... ويا نفس جدِّي إن دهرك هازل

بأُيّ سياسة يتولى الوليد بن يزيد، وهو الرعديد، البليد، المريد، وهو الذي فتح المصحف فوجد فيه: واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، غنته الجارية وهو في السكر، والنكر، شارد الفكر، ذاهب الذكر، تارك الشكر، فقال من الطرب: إلى أين أطير، قال العلماء: طر إلى السعير يا عير. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[القصص:٨١]

بأي سياسة يصبح الحجاج الوزير، صاحب الدف والزير، ليقتل ابن الزبير، بلا قصاص ولا تعزير.

بأي سياسة يُذبح سعيد بن جبير، العالم النحرير، والمحدث الشهير، وتعطى الجوائز لزرياب، وتخلع عليه الثياب، والعلماء يُدفعون عند الأبواب. لو أن المأمون فقه سنة الرسول الأمين، ولو أن المعتصم درس سنة المعصوم، لما عذبوا أحمد بن حنبل، سمّي أحمد النبي المبجل، لأن أحمد بن أبي دؤاد، أشغلهم عن الإسناد، بأقوال أهل الفساد، وبنقولات فلاسفة بغداد، وجهلة السواد.

يا لها من سياسة خربانة، تكرم الزنديق وأعوانه، وتضع ابن تيمية في زنزانة، وتحجب عنه إخوانه، بالسياسة تغزو العالم المزدكية، وتحكم بغداد الأسرة البرمكية، ويقتل ذو النفس الزكيّة، بأي سياسة خرج التتار، بكل بتار، فخربوا الديار، وقتلوا الصالحين الأبرار، وهدموا كل مسجد ودار، براءة من الله ورسوله إلى سياد بري، لأنه على الدماء جري، شنق علماء المالكية، والشنق عند مالك حرام بالكليّة.

دستم من رستم، مع هليا مريام منجستم، يا كم تنجستم، وغرتكم الأماني وتربصتم. بأي سياسة سمى الشيوعيون أنفسهم بالرفاق، وهم أهل النفاق، والشقاق، وسوء الأخلاق. كنّى أبو جعفر الخراساني أبا مسلم، فلما ذبحه قال: مت يا أبا مجرم.

أبو مسلم تبختر، وتكبر، وتجبر، فبقر بطنه أبو جعفر، بالخنجر، فسحب بعد الملك في السلك وجرجر، ما شاء الله يجلس الخليفة في بغداد، على الوساد،ويصفق له العباد، ويحرسه الأجناد، فتغنيه الجارية بصوت جميل، وشَعْرها يميل:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزِلِ

فيقع الخليفة في الطرب، فيصب على الجارية الذهب، وأحمد بن حنبل مسجون في الحق بلا سبب. يجلس الخليفة العباسي، على الكرسي، ويقول: يا ناس قبّلوا رأسي، وامسحوا مداسي، وقربوا قرطاسي.

فيقوم شاعر طرطور، منافق مدحور، فيقول: ما خلق الله مثلك أيها الخليفة، فأنت صاحب الأخلاق الشريفة، والمعاني اللطيفة، والأمجاد المنيفة، فيقول الخليفة: يا غلام: أعطه ألف دينار، واكتبوه من خدم الدار، فشِعْره تاج الأشعار، هذا وسفيان الثوري عالم الديار، وزاهد الأمصار، لا يجد كسرة خبز طيلة النهار.

بأي سياسة يشرد الشعب المسلم من فلسطين على الفور، بوعد بلفور، وقلوبه على الظلم تفور، والعالم الإسلامي بارد جامد هامد، جاحد شارد خامد، لا يثور كأنه مغمور أو مغرور، أو مسحور، ويحتل فلسطين اليهود، إخوان القرود، بلا حدود، ولا قيود، ولا شهود:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
لا يسألون أخاهم حين يندبهم... بنوا اللقيطة من ذهل ابن شيبانا
طاروا إليه زرافات ووحدانا
في النائبات على ما قال برهانا. اهـ

المبحث الرابع

مراعاة المصلحة والمفسدة والانضباط بضوابط الشرع

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في منظومته الفقهية:

الدين جاء لسعادة البشر ولانتفاء الشر عنهم والضرر

فكل أمر نافع قد شرعه وكل ما يضرنا قد منعه

ومع تساوى ضرر ومنفعة يكون ممنوعا لدرء المفسدة. اهـ

ومن خلال كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله يتبين أن المصلحة هي كل ما فيه منفعة للعباد في دنياهم وأخراهم، وأن المفسدة هي ما يلحق الضرر بالعباد في دينهم وأخراهم.

وإذا نظرنا إلى قضية المصلحة والمفسدة نرى أن كل خطوات النبي ﷺ التي اتخذها كانت فيها المصلحة التامة للإسلام والمسلمين مثل:

١ ـ سريته في الدعوة كانت مراعاة للمفسدة التي يمكن أن تتعرض لها الدعوة منذ نشأتها.

٢ ـ اختياره لبيت الأرقم بن أبي الأرقم مكانا لاجتماعه مع الصحابة حيث إبهامه عن أهل مكة وعدم التفطن إليه

٣ ـ عدم استخدامه للعنف والشدة مع المناوئين للدعوة حرصا على ضعف المسلمين وعدم تعرضهم للهلاك، فكان يقابل عنفهم بلين ورفق

٤ . حثه الصحابة على الصبر زيادة في تثبيتهم وتحملهم المشاق حرصا على الجنة

٥ . سماحه للصحابة بالهجرة إلى الحبشة حرصا على حياتهم ودينهم لما رأى ظلم الناس لهم

٦ . بدايته بالدعوة للمقربين إليه حرصا على هدايتهم واستعانة بهم على نشر الإسلام

٧ . اجتماعه مع أهل العقبة سرا بليل حرصا على عدم تعرضهم للأذى من أهل مكة وحقنا لدمائهم

٨ . عدم رضائه على أن يطبق ملك الجبال الأخشبين على أهل حرصا على مصلحة أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، وأن لا يؤخذ الصغار بذنب الكبار.

٩ . عدم مشاركته أهل مكة في نواديهم وسياستهم حرصا على أن لا ينال من شرهم شيئا. كما قال الله تعالى له في سورة المزمل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠)﴾

١٠ـ ذهابه إلى الطائف حرصا على نشر الدين وتقديم مصلحة الدين على أي شئ.

المبحث الخامس

التعايش السلمي مع المخالف

كانت حياة النبيﷺ منذ البداية مع أهل مكة تتسم بالصدق والأمانة والتعايش السلمي معهم من غير إحداث أذى لأي أحد، وهذا ما شهد له أهل مكة بذلك، وبعد البعثة كان حرص النبيﷺ على إنقاذ أهل مكة من النار بتركهم الشرك وعبادة الأصنام، وحثهم على صلة الأرحام وحسن الجوار وعدم أكل مال اليتيم وإكرام الضيف. وكل هذه خطوات على طريق التعايش السلمي دون وقوع أذى لأي أحد.

وأمثلة ذلك:

أولا: حرصه على بقائه في مكة

لم يكن النبيﷺ يدر بخلده أنه سوف يترك مكة ويخرج منها إلى غيرها وأن أهله هم الذين سيخرجونه. حتى قال له ورقة بن نوفل ذلك في بداية البعثة.

لما أخبره النبي ﷺ خبر ما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ياليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجي هم).؟ !!

فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا [١]

فمن هنا علم النبيﷺ أن أهل مكة سوف يعادونه ويخرجونه، ورغم ذلك كان مبقيا على أواصر الرحم والمودة معهم رغبة في إسلامهم. ولذلك قال حين خرج من مكة: " والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" [٢]

ثانيا: دعوته القائمة على تآلف المجتمع

كانت دعوة النبيﷺ منذ البداية على التآلف وتأكيد الأواصر الاجتماعية بين الناس وهذا واضح في قول خديجة رضي الله عنها حين قالت له لما قال لها: لقد خشيت على نفسي: كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق[٣]

فلو أن مجتمعا طبق هذه المبادئ العظيمة التي قامت عليها دعوة النبيﷺ لما كان هناك شحناء ولا بغضاء ولا تباغض ولا تحاسد، ولعم السلام والأمن هذه المجتمعات.

---

(١) البخاري (٦٥٨١) من حديث عائشة

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (والترمذي (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء

(٣) البخاري (٣، ٤٦٧٠)

فلم تكن دعوة النبيﷺ كما يدعي المغرضون أنها قامت على القتل والإرهاب والترويع واختلال الأمن. هذا الذي ذكرته خديجة يكذب كل هذا. وهذا واضح على مدى التعايش السلمي في المجتمع المكي الذي كان يرغب فيه رسول الله ﷺ . يدعو فيه بأمن وأمان واطمئنان، وتكون الوسيلة في الدعوة هي الإقناع بالحجة. لا القتال والسيف. ولكن أهل الشرك أبوا هذه الدعوة ظنا منهم أنها تقلل من قيمتهم وتسوي بينهم وبين عبيدهم في المكانة الاجتماعية برغم أن النبيﷺ قد قال لأهل مكة: قولوا لا إله إلا الله كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، لكنهم لم يصدقوا ذلك.

ثالثا: قبوله لأمانات أهل مكة عنده

عرف النبيﷺ من قبل بعثته بصدقه وأمانته وكان يلقب بهما بين أهل مكة، فكانوا لا يأتمنون غيره على ودائعهم وأمانتهم، وبرغم حربهم لهم ومناهضتهم إياه إلا أنه كان أمينا على ودائعهمﷺ، ولو كان النبيﷺ لا يريد تعايشا سلميا معهم لما قبل ودائعهم وحافظ عليها. فإنه ﷺ عند هجرته إلى المدينة ترك علي بن أبي طالب في بيته ينام في فراشه وأوصاه أن يرجع هذه الودائع والأمانات إلى أهلها بعدما يصبح.

رابعا: حرصه على اللين والرفق في التعامل مع الكفار

اتصف النبيﷺ منذ البداية باللين والرفق مع كل البشر، وكان حريصا على ذلك طوال فترة إقامته في مكة بعد البعثة وقد وصفه الله تبارك وتعالى

بهذا اللين فقال في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آية: ١٥٩]

وهذا واضح كما ذكرنا في كلامه مع أهل مكة وعندما جاءه عتبة بن ربيعة يعرض عليه ما عرض، وعندما كلم أبا جهل يدعوه إلى دين الله، وعندما كلم عمه أبو طالب، وغيرها كثير من المواقف التي حدثت معه ﷺ تبين بوضوح مدى حرص النبيﷺ على عدم استعمال أي عنف أو شدة مع أهل مكة رغبة في السم معهم، فالعنف لا يولد إلا عنفا مضادة وعنادا واستكبارا، فلكم يفعل النبيﷺ شيء من ذلك البتة.

خامسا: صبره على آذاهم وأمر أصحابه بذلك لعلهم يرجعون

برغم شدة أهل مكة على النبيﷺ وأصحابه وبرغم ما فعلوه به من سخرية واستهزاء وإيذاء إلا أنه لم يستخدم عصبته ولا استنفر قبيلته على قتال أو عنف، لكنه كان دائما صابرا عليهم عسى أن يرجعوا إلى عقولهم ويتوبوا إلى ربهم ويؤمنوا برسالتهﷺ . وقد أمر أصحابه بذلك أيضا، حتى وصل الأمر أن يأذن لأصحابه بالهجرة والخروج من أوطناهم حتى لا يثيروا أهل مكة ويزدادوا في شراستهم. كل هذه العوامل وغيرها تدل على حرص النبيﷺ على رغبته في التعايش السلمي مع أهل الكفر.

الفصل السادس

المستفاد من هذا البحث في الوقت المعاصر

في التعامل مع أصناف الناس

بالنظر في حال النبيﷺ في مكة وما ناله من المشركين هو وأصحابه، وما تتعرض له الدعوة في هذا العصر من فتن من داخلها وخارجها نخرج ببعض الدروس التي تعين العالم والداعية وطالب العلم على التقدم في نصرة دين الله تعالى.

المبحث الأول

أصناف الناس

كان في العهد المكي الناس صنفان: مؤمنون، وكفار.

والكفار كانوا على صنفين:

الصنف الأول: مشركون

وهم أكثر أهل مكة، وهؤلاء يتجهون بالعبادة إلى أصنام صنعوها بأيديهم باعتبارها تنفع وتضر وقد سموها بأسماء شتى فمنهم: هبل، ومناة، والعزة، واللات، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، وغيرا من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكل قبيلة تعتز بما تعبده وتفتخر به على سائر القبائل.

قال تعالى في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾[النجم: ١٩ ـ ٢٣]

ولكنهم كانوا يعتقدون بخالق واحد وهو الله تبارك وتعالى وقد جاء هذا في القرآن مفصلا منها:

. قال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾[العنكبوت: ٦١ . ٦٦]

. وقال سبحانه في سورة الزمر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾[الزمر: ٣٨ . ٤٠]

ومن عقائد هؤلاء المشركون أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولا بالحساب ولا الجنة ولا النار، ولا يؤمنون بأن الله واحد بل يسخرون من ذلك كما قال الله عنهم في سورة ص: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)

وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)﴾[ص: ٤ ـ ٧]

الصنف الثاني: أهل كتاب وهؤلاء قلة لا تذكر

وقد ذكر القرآن المكي تنبيها على معتقداتهم من ضمن التنبيه على العقائد الفاسدة التي يعتقد بها كثير من الناس، فكانت سورة مريم وهي سورة مكية توضح الإشكالية في شخصية المسيح عند النصارى وحقيقته في الإسلام وأيضا " إيراد قصة ولادة يحيى وعيسى وإنكار ألوهية عيسى مما يوحي بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصارى، ثم إن خبر انكسار الروم والبشرى بفوزهم مما يدل على أن الكتابيين في مكة كانوا نصارى، فضلًا عن أنه يدل على الصلات القوية بين المكيين والأحداث العالمية الجارية في ذلك الوقت، ولقد كانت صلات مكة قوية بالشمال حيث كانت النصرانية هي ديانة أهل الشام، كما كانت منتشرة بين القبائل التي تعيش على تخوم الشام وعلى الطرف الشمالي للعراق، كما كانت منتشرة في الحبشة واليمن، وبخاصة في نجران التي قدم منها وفد لمباحثة النبي ﷺ، ومن هذه الجهات قدم عدد كبير إلى مكة إما بتشجيع بعض القرشيين ليكون عندهم من يقوم بما هم في حاجة إليه من الصناعات، أو بسبب اضطهاد وقع عليهم، فلقوا من زعماء مكة ترحيبًا وتشجيعًا؛ فقد كانت بلاد الشام مسرحًا لكثير من الثورات والاشتباكات والاضطهادات الدينية، ومن المحتمل

أن يكون بينهم جماعة من المبشرين، فقد كان المبشرون يطوفون أنحاء الجزيرة العربية للدعوة إلى النصرانية، وقد شجعت حكومة الروم هذا التبشير لمآرب سياسية بعيدة الأهداف، فقد كانت تبغي من وراء ذلك كسب العرب إلى صفها ومحاربة أعدائها الفرس بسلاح الدين. وتشير كتب السيرة إلى أن شماسًا زار مكة في الجاهلية، وكان يعيش في مَرّ الظهران راهب مسيحي. كما كان في مكة نساء نصرانيات تزوجهن أهل مكة" (١)

وفي العهد المدني كان هناك صنف ثالث لم يكن قد ظهر بعد: وهم المنافقون.

فكان العهد المدني ينقسم إلى أهل كتاب وكانوا كثرة بالنسبة للمشركين، ومنافقون، ومشركون وكانوا قلة في المدينة وكثرة حول المدينة، والصنف الأكبر وهم المؤمنون. ولبحث فيهم له موضعه.

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول – الرقمية – أحمد إبراهيم الشريف (ص ١٩٥،١٩٦)

المبحث الثاني

أصناف الكفار والتعامل معهم

كان القرآن في العهد المكي ينزل في قضايا التوحيد والشرك الذي كان منتشرا وإنكارهم البعث والجنة والنار وغيرها مما ذكرناه قريبا.

فكان تعامل النبيﷺ مع أهل مكة بمثل ما ذكرناه في هذا البحث.

المطلب الأول

أصناف الكفار

قبل أن نتكلم عن كيفية التعامل لابد من تقسيم الكفار إلى أصناف، وكل صنف نعرض كيفية التعامل معه بصورة موجزة.

أصناف الكفار في العصر الحالي:

الصنف الأول: أهل كتاب

وهما قسمان:

القسم الأول: النصارى وهم أغلب أهل الكفر

وينقسمون باعتبارات:

الاعتبار الأول: من حيث نظرتهم للإسلام والمسلمين وهما نوعان:

النوع الأول: نصارى محاربون للإسلام وأهل عصبية ويغلب عليهم حقد الحروب الصليبية

والنوع لثاني: نصارى مسالمون ويتعايشون مع المسلمين في أمان.

والاعتبار الثاني: من حيث القوة والضعف نوعان:

الأول: أهل قوة وغلبة على المسلمين، ويتمثل في الدول الغير إسلامية سواء كانت غربية أو شرقية

والثاني: أهل ضعف: وهم من يتعايش في الدول الإسلامية باعتبارهم قلة.

والاعتبار الثالث: من حيث العقائد

فهم مختلفون إلى فرق شتى ومذاهب مختلفة، وكل مذهب وفرقة تعادي الأخرى، وتكفرها ولا تعتبرها على دين حق. وأكثرهم شهرة ثلاث طوائف:

الطائفة الأول: الكاثوليك: وهم أغلب أهل أوربا

والطائفة الثانية: البروستانت، وهم أغلب أهل أمريكا

الطائفة الثالثة: الأرثوذكس وهم في دول مختلفة يمثلون أغلبية النصارى مثل روسيا والصرب ومصر وأثيوبيا. وهم أكثر عداءا للإسلام والمسلمين، وما فعلوه بالمسلمين في الشيشان والبوسنة والهرسك واريتريا خير شاهد على ذلك. وهم أجهل طوائف النصارى على الإطلاق. وأكثرهم استجابة للإسلام عندما يعرض عليهم.

الصنف الثاني: اليهود

وهم محاربون للإسلام والمسلمين على طول الخط في الوقت المعاصر، ولا يوجد فيهم مسالم إلا من كان مضطهدا من قبل اليهود بسبب عرق أو نوع. فهم أشد الناس عداوة للإسلام وأهله

الصنف الثاني: أهل وثنية

وهم في العصر الحديث كثر على رأسهم:

البوذية، ويدين بها أكثر من تسعمائة مليون نسمة وتمركز في الصين واليابان وسيرلانكا ونحوها من الدول الشرقية.

الهندوسية (أو البرهمية) وهذه يدين بها معظم سكان الهند.

ثم ديانات مختلفة في الهند وغيرها

المطلب الثاني

التعامل مع الكفار

التعامل مع هؤلاء الكفار على وجوه:

الوجه الأول: بصفة عامة

وذلك بالآتي:

١ . الولاء والبراء يستوي فيه الجميع من حيث أنهم جميعا يبغضون في الله، فلا يجتمع حب الكافر وحب الله في قلب عبد، والمقصود به ديانة. أما غريزة فهذا شيء مباح كحب الوالدين أو الزوجة الكتابية أو الأولاد.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾[التوبة: ٢٣، ٢٤]

وقال سبحانه في سورة المجادلة: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾[المجادلة: ٢٢]

وقال سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾[المائدة: ٥١]

٢ ـ هجر كفرهم وما يقومون به في أعيادهم

وهكذا أنزلت سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾[سورة الكافرون]

٣ ـ ترك التشبه بهم فيما يقدح في دين المسلم.

روى أحمد وأبوداود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم».[(١)]

٤ ـ لا ينصرون على المسلمين

فنصرة الكافر على المسلم من أعظم الظلم والمحادة لله ورسوله.

فلم يثبت في العهد المكي أن النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه نصر كافرا على مسلم ولا وده ولا تشبه به في عقيدة.

٥ ـ عدم دخولهم المسجد الحرام

---

(١) أحمد وأبوداود (٤٠٣١) وقال الألباني في كتاب الحجاب (١٠٤) حسن صحيح، وانظر إرواء الغليل له (١٢٦٩)

لقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾[التوبة: ٢٨]

فيستوي الكتابي والوثني في ذلك.

٦ . قتالهم إذا قاتلوا المسلمين وغزوهم في دارهم أو نكثوا عهدهم بحسب قدرة المسلمين

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾[التوبة: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾[التوبة: ١٢ـ١٥]

وهذا حق مشروع لا ينكره أحد من الناس حتى في الأعراف الدولية.

٧ . إذا أتيحت الفرصة للمسلمين في غزوهم في عقر دارهم ونشر الإسلام فيها فيجب ذلك بضوابطه الشرعية. ويسمى هذا بجهاد الطلب.

الوجه الثاني: التعامل مع الكفار بصفة مفصلة.

وهم كما ذكرنا قسمان: أهل كتاب، ووثنيين.

القسم الأول: أهل الكتاب

وهذه أقسام وأنواع باعتبارات شتى: بحسب قوتهم وضعفهم، وبحسب كونهم محاربون أو غير محاربين، ومن حيث دعوتهم لدينهم وسط المسلمين، وعدم دعوتهم.

أ . إذا كانوا هم الأقوى عدة وعتادا:

فإذا كان اليهود والنصارى في بلد هم أقوى من المسلمين عدة وعتادا كمثل حال الدول الأوربية والأمريكية وكثير من دول أفريقيا وكذلك استراليا وبعض الدول الشرقية. فإن زمام الأمور بأيديهم

فعلى المسلم أن يأخذ الدرس من حياة النبي ﷺ وأصحابه في مكة طيلة عشر سنين. وذلك على النحو التالي باختصار:

١ . الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

هذا إذا كان في بلد يسمح له بالدعوة العلنية، فإن لم يتيسر فتكون دعوته سرية كما فعل النبي ﷺ في مكة، وإن لم يستطع إظهار شعائر دينه فهنا تشرع الهجرة على حسب الاستطاعة إلى بلد يستطيع المسلم إقامة شعائر دينه فيها: قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ

اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾[النساء: ٩٧ ـ ٩٩]

٢ـ إظهار الإسلام العملي أخلاقا وآدابا بين الناس، فإن العمل أبلغ من القول في الدعوة؛ فقد كان النبي ﷺ قرآنا يسير على الأرض

٣ ـ استخدام اللين والرفق كما كان يفعل رسول الله ﷺ

وما فعله المهاجرون إلى الحبشة خير مثال على ذلك في التعايش مع النصارى في بلادهم دون إحداث ما يضر بها ولا بأهلها.

٤. المجادلة بالتي هي أحسن قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾[العنكبوت: ٤٦]

تنبيه:

الإقامة بين المشركين لغير مصلحة شرعية نوع من الولاء لهم وفي الغالب التأثر بهم في عادتهم وتقاليدهم على حساب دينه إذا كان ضعيفا فيه وقد ورد النهي في القرآن كما ذكرناه قريبا من سورة النساء (٩٧ ـ ٩٩)

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره[١] : نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، و هو قادر على الهجرة، و ليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع، و بنص هذه الآية "

وقد نهى النبيﷺ عن ذلك فقد أخرج أحمد والبيهقي بإسناد صحيح عن يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: كنا بالمربد جلوسا فأتى علينا رجل من أهل البادية لما رأيناه قلنا: هذا كأن رجل ليس من أهل البلد

قال: أجل .

فإذا معه كتاب في قطعة أديم قال . وربما قال في قطعة جراب . فقال: هذا كتاب كتبه لي رسول الله ﷺ فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش وهم حي من عكل: إنكم إن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم المشركين وأعطيتم الخمس من المغنم ثم سهم النبي ﷺ والصفي . وربما قال وصفيه . فأنتم آمنون بأمان الله تبارك وتعالى وأمان رسوله[٢].

وروى أبوداود عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين

قالوا: يا رسول الله لم ؟

---

(١) (١ / ٥٤٢)

(٢) أحمد (٢٠٧٤٠) والبيهقي (١٣١٢٧، ١٨٢٠٨)

قال: لا تراءى ناراهما.[1]

ب . إذا كانوا أهل ضعف وبالنسبة للمسلمين

وهذا حال أهل الكتاب في بلاد الإسلام، فهم أقلية ضعيفة.

فهؤلاء في الغالب لهم عهد أمان وذمة سواء كان عرفي أو شرعي.

عرفي باعتبار الموطنة من قديم الزمن والمعايشة السلمية مع أهل الإسلام، وغالبا ما تأثروا بعادات أهل الإسلام في تعاملاتهم. غير أنه في الآونة الأخيرة ظهرت لهم طفرة في مخالفة المسلمين في كثير من الأشياء لأجل المفارقة والدعوة إلى دينهم.

فهؤلاء يتعامل معهم في الغالب بالآتي:

١ . عدم التعرض لهم في أموالهم ولا أعراضهم ولا أنفسهم إلا بحق، ويجب حمايتهم من الظلم والعدوان. وله حسن الجوار

قال تعالى في سورة الممتحنة ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾[الممتحنة: ٨،٩]

(١) أبوداود (٢٦٤٥) ورجاله كلهم ثقات مع اختلاف فيه وقد صححه الألباني كما في الإرواء (١٢٠٧)

وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما»(١)

والمعاهد هو: الذمي من أهل العهد أي الأمان والميثاق

وروى ابن ماجة عن عمرو بن الحمق الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمن رجلا على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة»(٢)

وقد قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦)﴾[التوبة: ٦]

٢ ـ إباحة الزواج من نسائهم المحصنة (العفيفة)

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾[المائدة: ٥]

---

(١) البخاري (٢٩٩٥)

(٢) صحيح: ابن ماجة (٢٦٨٨) وقد أخرجه أحمد (٢١٩٤٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٨٣٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٧٦)

٣ . دعوتهم إلى الإسلام بالحسنى: كما قال تعالى لنبيه في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾[آل عمران: ٦٤ ـ ٦٧]

كلمات رقيقة ومخاطبة لينة حث عليها المولى تبارك وتعالى، والمناداة بأهل الكتاب أفضل من المناداة بيا يهود أو يا نصارى. فأكثر النصارى لا يحبون المناداة بهذا الاسم لكن لو خاطبناهم بخطاب الله تعالى لكان أفضل .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا رضي الله عنه على اليمن قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»[1]

(١) البخاري (١٣٨٩)

٤ ـ عدم إكراهه على الدين الإسلامي

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾[البقرة: ٢٥٦]

وهناك فرق بين عدم إكراهه على اعتناق دين ما، وفرق بين ما ينادي به العلمانيون اليوم ومن تأثر بهم "بحرية الاعتقاد" فإن الأولى تعني أنه لا يكره أحد على ترك ما هو عليه والدخول في دين آخر.

أما حرية الاعتقاد: فتعني لكل إنسان الحق التنقل من دين إلى دين، وهذا إذا كان جائزا أن يفعله الإنسان مع أي دين آخر؛ لكن لا يجوز فعله مع الإسلام، فالمسلم لا يحق له أن يعتنق دينا آخر غير الإسلام، ويجب تطبيق حد الردة عليه إن هو فعل ذلك كما هو مقرر في كتاب الفقه.

٥ ـ على الحاكم المسلم إن يرغمهم على دفع الجزية إذا توفرت لهم حقوقهم كاملة في عقد الذمة، فإن أبوا وقاتلوا على ذلك قاتلهم الإمام كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾[التوبة: ٢٩]

وهذه منوطة بالمصلحة والمفسدة التي بيد حاكم المسلمين في أي بلد، وليس لآحاد الرعية.

٦ ـ من كان داعية إلى دينه في بلاد الإسلام (كما هو حال أهل التنصير) فيجب مجادلتهم بالتي هي أحسن بالحجة والبرهان. فإذا انقطعت حجتهم فعلى حاكم البلد أن يعامل من يفعل ذلك بما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

القسم الثاني: التعامل مع الوثنين

الكافر الأصلي التعامل معه مثل التعامل مع الكتابي إلا في مواضع منها:

١ـ لا تنكح نساؤهم، فإن الله تعالى يقول في سورة البقرة: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١)﴾[البقرة: ٢٢١]

٢ ـ عند قتالهم يعرض عليهم أمران فقط: الإسلام أو الحرب

فإن استجابوا للإسلام فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأن أبوا إلا القتال فتعطى ليهم حقوق القتال ويتعامل معهم بأخلاق الحرب على هدي النبي ﷺ .

تنبيه:

هناك صنف ثالث من الكفار:

وهو من كان مسلما ثم اعتنق دينا غير الإسلام وتبرأ من الإسلام.

ففي هذا الزمان لابد من دعوته إلى الرجوع إلى دينه بلين ورفق، ودحض الحجج التي استند عليها في تركه الإسلام واعتناق دينا غيره.

أما إذا كان في دولة تطبق حكم الله تعالى في الردة فيرفع أمره إلى القضاء فيها لتقام عليه الحجة البينة، ثم بعد ذلك يحكم فيه القاضي بما يراه مصلحة له وللأمة.

قال ابن عبد البر:

ولا أعلم بين الصحابة خلافا في استتابة المرتد فدل ذلك على أن معنى الحديث والله أعلم [١]

وعلى المسلمين بعد عناده واستكباره الهجر والابتعاد عنه بحسب المصلحة المترتبة على الهجر وعدمه.

فربما يكون التعامل معه بتعامل الكافر الأصلي، وربما يكون بغير ذلك سواء كان أشد أو أخف بحسب المصلحة المترتبة والمفسدة.

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر (ج٥/ ص ٣٠٩) ونقل رحمه الله أقوال العلماء في ذلك فليراجع

المبحث الثالث

التعامل مع أهل البدع

أهل البدع من المخالفين للدين سواء كان في قليل أو كثير، ولكن الفرق بينهم وبين أهل الكفر أو المرتدين أنهم متمسكون بالإسلام ويظنون أن ما يفعلوه هو الحق الذي جاء من عند الله تعالى.

ولذلك كان أهل البدع من حيث اختلاطهم بالمسلمين ويتكلمون بألسنتهم فهم أخطر من أهل الكفر، ومن حيث الولاء والعداء فلا يقاسون بأهل الكفر في ذلك، بل يحبوا على حسب ما عندهم من إسلام ويبغضوا بحسب ما عندهم من شرور.

أولا: معنى البدعة

١ ـ لغة: قال الخليل:

البَدْعُ: إحداثُ شيءٍ لم يكن له من قبلُ خلقٌ ولا ذكرٌ ولا معرفةٌ.[١]

فهي الشيء الجديد المحدث على غير مثال سابق.

٢ ـ اصطلاحا: قال الشاطبي رحمه الله:

عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.

---

(١) العين للخليل بن أحمد (ج ١/ ص ٩٧)

وهـذا علـى رأي مـن لا يـدخل العـادات في معـنى البدعـة وإنمـا يخصـها بالعبادات وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول:

البدعة: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية [١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: البدعة ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة، من الاعتقادات والعبادات [٢]

والفرق بين تعريف الإمام الشاطبي وشيخ الإسلام: هو المقصد من إحداث البدعة. فكلام الشاطبي يدل على أن من لم يقصد بفعله التعبد ولا المضاهاة للطريقة الشرعية فليس ببدعة.

وهذا يدخل فيه كثير من عادات الناس التي لا يقصدون بها تعبدا.

وأما شيخ الإسلام فحددها بمجرد المخالفة للعبادات أو العقائد من غير اعتبار للقصد.

ونرى الشيخ الألباني رحمه الله يفصل في البدعة فيقول:

إن البدعة المنصوص على ضلالتها من الشارع هي:

أ – كل ما عارض السنة من الأقوال أو الأفعال أو العقائد ولو كانت عن اجتهاد.

ب – كل أمر يتقرب إلى الله به، وقد نهى عنه رسول اللهﷺ.

---

(١) الاعتصام (ج ١/ ص ٢٦)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٦٤/١٨)

ج – كل أمر لا يمكن أن يشرع إلا بنص أو توقيف، ولا نص عليه، فهو بدعة إلا ما كان عن صحابي.

د – ما ألصق بالعبادة من عادات الكفار.

هـ – ما نص على استحبابه بعض العلماء سيما المتأخرين منهم ولا دليل عليه.

و – كل عبادة لم تأت كيفيتها إلا في حديث ضعيف أو موضوع.

ز – الغلو في العبادة.

ح – كل عبادة أطلقها الشارع وقيدها الناس ببعض القيود مثل المكان أو الزمان أو صفة أو عدد.[1]

وهذا التفصيل من أجود ما قيل في البدعة.

فصاحب البدعة أو من يفعلها تقليدا إنما يعتقد أنها حق وجب إتباعه أو في إتباعه قربة إلى الله تعالى ينال عليها الأجر.

ثانيا: من هو المبتدع

عرفنا معنى البدعة، بقي أن نعرف من هو المبتدع ؟

إن من فعل بدعة أو اعتقدها لا يخلوا من أحد شخصين:

شخص عالم؛ وقد أداه اجتهاده إلى هذه البدعة ظنا منه أنها استنباط حكما جديدا من أدلة جزئية أو كلية.

---

(١) أحكام الجنائز (ج ١/ ص٢٤٢)

والشخص الآخر: مقلد

ولا يجوز إطلاق كلمة مبتدع على كلا الشخصين إلا بضوابط. فلابد من إثبات شروط وانتفاء موانع في حقه. مثل من يقع في الكفر.

فالحكم غير المعين.

وكما أن ليس كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه؛ فكذلك ليس كل من وقع في البدعة وقعت البدعة عليه.

ومن هذا نقول: أن المبتدع هو كل من وقع في بدعة . سواء كانت من اختراعه أو تقليدا . وأقيمت عليه الحجة وانتفت موانعه ودحضت حجته، فأصر وعاند بعد ذلك تمسكا ببدعته

وهذا لا يتأتى لآحاد الناس، أو صغار طلبة العلم؛ بل هو لمن كان ذا رسوخ في العلم يخشى ربه سبحانه وتعالى، وليس من لا يبالى إن ألقى التهم جزافا والأحكام على الغير ظنا منه أنه يخدم الدين وأهله !!

فلابد من التفريق بين الحكم بأن من فعل كذا فهو مبتدع، وبين كون شخصا ما يعين بذلك

ثالثا: المشركون والابتداع

لا شك أن المشركين العرب قد وقعوا في الابتداع، فأول من ابتدع عبادة الأصنام في جزيرة العرب كان عمرو بن لحي الخزاعي، وهو أول من سيب

السوائب وبحر البحيرة. وهذا كله كان تغيرا لملة إبراهيم عليه السلام، وهي الحنفية السمحة.

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء

قال وقال أبو هريرة:: قال رسول الله ﷺ: « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب »[1].

والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي.

وروى أيضا: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب »[2]

قال بدر العيني في عمدة القارئ:

وروى محمد بن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن إبراهيم التيمي: أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة قال: سمعت رسول الله يقول لأكتم:

---

(١) البخاري (٤٣٤٧)

(٢) البخاري (٤٣٤٨)

رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار إنه أول من غير دين إسماعيل عليه الصلاة والسلام فنصب الأوثان وسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامي

قال: وحدثني بعض أهل العلم: أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق فرآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟

قالوا له: هذه نعبدها ونستمطر بها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا

فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟

فأعطوه صنما يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

ويقال: كان عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو في المواسم فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة، حتى إنه اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات.

ويقال: إن اللات كان من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو: إنه لم يمت ولكنه دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتا يسمى اللات، ودام أمر عمرو وأمر ولده علي هذا بمكة ثلاثمائة سنة.(١)

فالشرك أصله ابتداع شيء لم ينزله الله تعالى. فهو نوع من البدع.

فبعث الله نبيه محمدﷺ لدعوة الناس للتوحيد ونبذ بدع الشرك، فأبى أهل مكة إلا الشرك

ثالثا: أقسام البدع

وتنقسم البدع من حيث مخالفتها للشرع إلى قسمين:

بدعة كفرية، وبدعة تكون فساقا لا كفرا:

القسم الأول: البدعة الكفرية:

. ضوابط البدعة المكفرة:

من المعلوم أن الحكم على فعل ما أنه كفر، أو ترك فعل ما أنه كفر أو اعتقاد فعل أو قول ما أنه كفر لا يكون بالعقل؛ بل بنص من الكتاب أو السنة. لا بقول زيد أو عمرو من الناس غير النبيﷺ مهما كان. ولذلك تكون الضوابط بحسب ما جاءت في الشرع أصولها.

فلذلك نذكر ضوابط البدعة الكفرية بما يأتي:

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦/ ٩٢)

الضابط الأول: كل فعل أو قول فيه صرف عبادة من العبادات لغير الله. مثل النذر والذبح والدعاء والسجود عبادة ونحو ذلك

الضابط الثاني: كل عقيدة تخالف عقيدة الإسلام، كأن يعتقد بأن الولي الفلاني أو النبي الفلاني يملك نفعا أو ضرا من دون الله، أو يعتقد أن شرع الله لا ينفع الحكم به في عصر من العصور، أو يعتقد حل شيء حرمه الله ونحو ذلك.

الضابط الثالث: كل قول يخالف عقيدة الإسلام الصحيحة ويصادم القرآن والسنة فهو بدعة كفرية، مثل القول بخلق القرآن، وأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ونحو ذلك.

القسم الثاني: بدعة ليست كفرية

وهي لا تخرج صاحبها من ملة الإسلام، وتكون بمرتبة المعاصي، وتختلف حرمتها بحسب موقفها من السنة أو القرآن، ولا تتساوى في المنزلة.

وهذا القسم ينقسم إلى بدع قولية وبدع عملية وبدع اعتقادية، وكل من الثلاثة فيه من البدع العظيمة وفيه من البدع الصغيرة.

مثال للبدع القولية: الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان (من المؤذن) بصوت عال. فليست بأشد من قول المتصوفة بصوت جماعي ألف مرة: الله الله، وهذه ليست بأشد ممن يقول: الإيمان قول واعتقاد فقط. وهذه ليست بأشد

ممن يقول: الإيمان التصديق فقط، وهذه ليست بأشد ممن يقول بأن مرتكب الكبيرة في المنزلة بين المنزلتين. وهكذا إلى أن تصل إلى القول الكفري.

ومثال للبدع الاعتقادية: من يفضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذه ليست بأشد ممن يفضل علي على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعا، وليست هذه بأشد ممن يعتقد أن أبا بكر وعمر قد تحالفوا ضد علي وأخذوا منه حقه في الخلافة، وليست بأشد ممن يتعقد سب أبا بكر وعمر ديانة. وهكذا.

ومثال للبدع العملية: تزيين المساجد، وهذه ليست بأشد ممن يصلي على تربة يعتقد فيها أنها دم الحسين، وليست هذه بأشد ممن يرقص ويتمايل في المساجد زاعما أن هذا ذكر، وليست هذه بأشد ممن يعلق خرزة أو تميمة ونحو ذلك.

ومن البدع الخطيرة التي انتشرت في زماننا: بدعة امتحان الناس

قال الشيخ عبد المحسن العباد:

ومن البدع المنكرة ما حدث في هذا الزمان من امتحان بعض من أهل السنَّة بعضاً بأشخاص، سواء كان الباعث على الامتحان الجفاء في شخص يُمتحن به، أو كان الباعث عليه الإطراء لشخص آخر، وإذا كانت نتيجة الامتحان الموافقة لِمَا أراده الممتحِن ظفر بالترحيب والمدح والثناء، وإلاَّ كان حظّه التجريح والتبديع والهجر والتحذير، وهذه نقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية

في أوَّلها التبديع في الامتحان بأشخاص للجفاء فيهم، وفي آخرها التبديع في الامتحان بأشخاص آخرين لإطرائهم، قال . رحمه الله . في مجموع الفتاوى (٣/٤١٣ . ٤١٤) في كلام له عن يزيد بن معاوية: ((والصواب هو ما عليه الأئمَّة، من أنَّه لا يُخَصُّ بمحبة ولا يلعن، ومع هذا فإن كان فاسقاً أو ظالماً فالله يغفر للفاسق والظالم، لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (أوَّل جيش يغزو القسطنطينيَّة مغفورٌ له)، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصاري ... فالواجب الاقتصاد في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به؛ فإنَّ هذا من البدع المخالفة لأهل السنَّة والجماعة)).

وقال (٣/٤١٥): ((وكذلك التفريق بين الأمَّة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ)).

وقال (٢٠/١٦٤): ((وليس لأحد أن ينصب للأمَّة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويُوالي ويُعادي عليها غير النَّبيِّ ﷺ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويُعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمَّة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويُعادون)).

وقال (٢٨/١٥ . ١٦): ((فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجر شخص أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك نظر فيه: فإن كان قد فعل ذنباً شرعيًّا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنباً شرعيًّا لم يجز أن يُعاقب بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره.

وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البرِّ والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾)).

ولو ساغ امتحان الناس بشخص في هذا الزمان لمعرفة مَن يكون من أهل السنَّة أو غيرهم بهذا الامتحان، لكان الأحقَّ والأولى بذلك شيخ الإسلام ومفتي الدنيا وإمام أهل السنَّة في زمانه شيخنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز المتوفى في ٢٧ من شهر المحرم عام ١٤٢٠هـ، رحمه الله وغفر له وأجزل له المثوبة، الذي عرفه الخاصُّ والعام بسعة علمه وكثرة نفعه وصدقه ورِفقه وشفقته وحرصه على هداية الناس وتسديدهم، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً؛ فقد كان ذا منهج فذٍّ في الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، يتَّسم بالرِّفق واللِّين في نصحه وردوده الكثيرة على غيره، منهج سديد يقوِّم أهلَ السنَّة ولا يُقاومهم، وينهض بهم ولا يُناهضهم، ويَسْمو بهم ولا يسِمُهم، منهج يجمع ولا يُفرِّق، ويلمُّ ولا يمزِّق، ويُسدِّد ولا يبدد، ويُيسِّر ولا يُعسِّر، وما أحوج المشتغلين بالعلم وطلبته

إلى سلوك هذا المسلك القويم والمنهج العظيم؛ لِمَا فيه من جلب الخير للمسلمين ودفع الضَّرر عنهم.

والواجب على الأتباع والمتبوعين الذين وقعوا في ذلك الامتحان أن يتخلَّصوا من هذا المسلك الذي فرَّق أهلَ السنَّة وعادى بعضُهم بعضاً بسببه، وذلك بأن يترك الأتباعُ الامتحان وكلَّ ما يترتَّب عليه من بُغض وهجر وتقاطع، وأن يكونوا إخوةً متآلفين متعاونين على البرِّ والتقوى، وأن يتبرَّأ المتبوعون من هذه الطريقة التي توبعوا عليها، ويُعلنوا براءتَهم منها ومِن عمل مَن يقع فيها، وبذلك يسلم الأتباع من هذا البلاء والمتبوعون من تبعة التسبُّب بهذا الامتحان وما يترتَّبُ عليه من أضرار تعود عليهم وعلى غيرهم. (١)

وأخطر منها: رمي من ينتسب إلى أهل السنة والجماعة . طريقة السلف . بالبدعة والضلالة بمجرد الهفوة والزلة، أو الطعن في النيات والمقاصد. تحت اسم الجرح والتعديل، وهو والله كلمة حق يراد بها باطل. فلقد شتت هؤلاء الأذهان، وحيروا الناس، وأصبح أقرب طريق وأسلم طريق يسلكه عوام الناس هو طريق المعاصي والانغماس فيها ما دامت أفضل أخف من الضلال !!

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله:

وقريبٌ من بدعة امتحان الناس بالأشخاص ما حصل في هذا الزمان من افتتان فئة قليلة من أهل السنَّة بتجريح بعض إخوانهم من أهل السنة

(١) كتاب: الحث على اتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها للشيخ عبد المحسن العباد (ص ٢٤، ٢٥)

وتبديعهم، وما ترتَّب على ذلك من هجر وتقاطع بينهم وقطع لطريق الإفادة منهم، وذلك التجريح والتبديع منه ما يكون مبنيًّا على ظنٍّ ما ليس ببدعة بدعة، ومن أمثلة ذلك أنَّ الشيخين الجليلين عبد العزيز بن باز وابن عثيمين . رحمهما الله . قد أفتيا جماعة بدخولها في أمر رأيَا المصلحة في ذلك الدخول، وممَّن لم يُعجبهم ذلك المفتَى به تلك الفئة القليلة، فعابت تلك الجماعة بذلك، ولَم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل انتقل العيب إلى مَن يتعاون معها بإلقاء المحاضرات، ووصفه بأنَّه مُميِّع لمنهج السلف، مع أنَّ هذين الشيخين الجليلين كانا يُلقيان المحاضرات على تلك الجماعة عن طريق الهاتف.

ومن ذلك أيضاً حصول التحذير من حضور دروس شخص؛ لأنَّه لا يتكلَّم في فلان الفلاني أو الجماعة الفلانية. اهـ [1]

رابعا: حرمة البدع وخطورتها

لا شك أن حرمة البدعة ثابتة بالقرآن والسن والإجماع، ولا يخالف في ذلك أحد من المسلمين.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾[الشورى: ٢١]

والبدعة تشريع دين لم يأذن به الله تعالى، وتغيير لدين الله تعالى، فما أحدثت بدعة إلا وقد أميتت مكانها سنة.

(١) المصدر السابق (ص٢٦)

وروى مسلم في صحيحه عن جابر ابن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا خطب يوم الجمعة قال: « أمَّا بعد، فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكلَّ بدعة ضلالة »[١].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قال قائل: يا رسول الله! كأنَّ هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي، فإنَّه مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديِّين الراشدين، تَمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»[٢]

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[٣]

وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»

خامسا: التعامل مع من وقع في بدعة

فلا شك أن التعامل مع من وقع في البدعة مع هذه التفصيلات الدقيقة، ولقد تعامل النبي ﷺ مع أهل مكة، ولا شك أنهم مبتدعة لأنهم

---

(١) مسلم (٨٦٧)

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) . وهذا لفظه . والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ . ٤٤)، وقال الترمذي: ((حديث حسن صحيح)). وأخرجه أحمد(١٧١٤٢) والدارمي (٩٥) وصححه حسن أسد والألباني.

(٣) البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)

على بدعة عمرو بن لحي كانوا يسيرون، وينهجون، وهذه من البدع الشركية، ورغم ذلك رأينا كيف كان النبيﷺ معهم رفيقا رحيما هينا لينا، لا هم له إلا أن يوحدوا الله تعالى وينبذوا الشرك.

فالمسلم في دعوته لا يقتصر على المجتمع الذي يحيط به فقط؛ بل هو داعية لكل الشعوب والمجتمعات، وتختلف البدع الشركية والعقائدية من مجتمع إلى مجتمع قوة وضعفا، كثرة وقلة، ويختلف حال أهل البدع من مكان إلى مكان قوة وضعفا، كثرة وقلة. والمسلم إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الله، فلابد من العلم الصحيح والفقه القويم والرفق الشفيق والصبر الجميل، والحكمة فوق كل ذلك. ومن يستطيع ذلك إلا من أخلص النية لله، وتدرب على تحمل أذى الناس، وخبر حالهم، واختبر مداخلهم.

فمن الناس من ينفع معه الهجر، ومن الناس من ينفع معه العنف، ومن الناس من يصلح معه التوسط، ومنهم من لا يصلح معه إلا اللين، ومن الناس من لا يصلح معه شيء. هذا بالنسبة إلى أعيان الناس؛ لكن التحذير من البدع شيء واجب على مسلم.

وكل هذا يدور على حسب تقدير المصلحة والمفسدة. أما من ناحية الحب والبغض: فإن صحاب البدعة المكفرة المعاند لشرع لله وقد أقيمت عليه الحجة وألزمته المحجة؛ فهذا يبغض كما يبغض الكافر الأصلي إلا من لا زالت في رأسه شبهات لم تزل فهذا لا يكون كسابقه.

وأما المبتدع بدعة غير مكفرة: فهذا يحب من جانب ويبغض من جانب، ومن الظلم أن يبغض كلية، ويشنع به على رؤوس الأشهاد وكأنه مارق من الدين كافر بالله العظيم.

ومن سار على منهج النبي ﷺ وأصحابه لا يأتي فعله إلا بكل خير، ويدرأ كل شر، ومن اتبع نفسه هواها؛ كانت عواقب فعله وخيمة وجر على المسلمين كل بلية. والله المستعان

المبحث الرابع

التعامل مع أهل المعاصي

أما أهل المعاصي فهم المخطئون المذنبون العالمون بأن ما هم فيه مخالفة لرب العالمين ولرسوله الكريم، لكن النفس قد سارت وراء الهوى. وفرق بين هؤلاء وبين أهل البدع، فأهل البدع يعتقدون أن ما يفعلونه شرعة وسنة مهدية، وأما هؤلاء فأكثرهم بعد اقتراف ذنبه يؤنب نفسه على ما اقترفه من آثام؛ وربما يكون هذا الندم لحظة بعد انقضاء الشهوة وتحقيق ما كان ينشده.

أولا: معنى المعصية

العصيان: ضد الطاعة

والمعصية هي: مخالفة الأمر قصدا [1]

فهي: مخالفة أمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ اللازم فعله أو تركه، وفعل ما نهى الله عنه أو نهى عنه رسوله ﷺ . شهوة وهوى.

قال تعالى في سورة طه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾[طه: ١٢١،١٢٢]

وقال تعالى عن ملائكة النار: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾[التحريم:٦]

---

(١) انظر التعريفات للجرجاني (ص ٧٢)

ثانيا: أقسام المعاصي

تنقسم المعاصي باعتبارات:

الاعتبار الأول: من حيث غلظ المعصية

وهي نوعان: كبائر، وصغائر

قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)﴾[النساء: ٣١]

وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾[الشورى: ٣٧]

وقال تعالى في سورة الطور: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) ﴾[الطور:٣٢]

وقال تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات: ٧]

قال الشيخ محمد صالح العثيمين رحمه الله في تفسير الآية من السورة:

كرّه إليكم الكفر الذي هو مقابل الإيمان، والفسوق الذي هو مقابل الاستقامة، والعصيان الذي هو مقابل الإذعان، وهذا تدرج من الأعلى إلى ما دون: فالكفر أعظم من الفسق، والفسق أعظم من العصيان، فالكفر هو الخروج من الإسلام بالكلية، وله أسباب معروفة في كتب أهل العلم ذكرها الفقهاء – رحمهم الله – في باب أحكام المرتد، وأما الفسق فهو دون الكفر،

لكنه فعل كبيرة، مثل أن يفعل الإنسان كبيرة من الكبائر ولم يتب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، وما أشبه ذلك، والعصيان: هو الصغائر التي تكفَّر بالأعمال الصالحة. اهـ

النوع الأول: الكبائر

وقد اختلف العلماء في حدها وعددها اختلافا كثيرا، والفرق بينها وبين الصغيرة.

وقع الاتفاق على أن كل فعل أوجب كفرا فهو كبيرة. وهناك كبائر قد عرفت من خلال النصوص الشرعية. ولكن اختلفوا فيما دون ذلك.

وقد ذكر الاختلاف ابن حجر الهيتمي في الزواجر نذكرها مختصرة:

أحدها: أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة.

ثانيها: أنها كل معصية أوجبت الحد، وبه قال البغوي وغيره

ثالثها: أنها كل ما نص الكتاب على تحريمه، أو وجب في جنسه حد؛ وترك فريضة تجب فورا

رابعها: كل جريمة تعلم بقلة اعتناء مرتكبها بالدين

خامسها: أنها ما أوجب الحد أو توجه إليه الوعيد، والصغيرة ما قل فيه الإثم

سادسها: أنها كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه، فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوها من التحريم كان فاحشة

سابعها: أنها كل فعل نص الكتاب على تحريمه: أي بلفظ التحريم

ثامنها: أنه لا حد لها بحصرها يعرفه العباد .اهـ

والنوع الثاني: الصغائر

قد تعرف بعض الصغائر لكن لا يعرف عددها، ولا يعرف حدها، فهي متعلقة بالكبيرة، والاختلاف في حد الكبيرة يؤدي إلى الاختلاف في حد الصغيرة.

فمن هذه الصغائر: النظرة المحرمة واللمس والتقبيل ونحو ذلك كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[هود:١١٤]. قال الرجل ألي هذه ؟

قال « لمن عمل بها من أمتي »[(١)].

وما رواه البخاري أيضا عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه»[(٢)]

---

(١) البخاري (٤٤١٠)

(٢) البخاري (٥٨٨٩)

الاعتبار الثاني: تقسيم المعاصي باعتبار الحقوق

وهي نوعان: معاصي في حق الله تعالى، ومعاصي في حق الخلق

النوع الأول: معاصي في حق الله تعالى

وهي غير الكفر مثل: ترك الزكاة وترك الصيام والحج على القادر، والربا والنظرة المحرمة والهوى في القلب ونحو ذلك.

النوع الثاني: معاصي في حق العباد

مثل القتل، والسب، وأكل الأموال بالباطل، ونحو ذلك

الاعتبار الثالث: باعتبار ظهورها وخفائها

وهي نوعان: ظاهرة، وباطنة

النوع الأول: المعاصي الظاهرة وهي نوعان:

مستترة وغير مستترة.

مثل شرب الخمر والزنا ولعب الميسر وأكل أموال الناس بالباطن، وترك الصلاة والزكاة والحج والصيام، وعقوق الولدين وغير ذلك.

النوع الثاني: معاصي باطنة

وهي التي تكون في القلب ولا تظهر على الجوارح.

مثل حب الفاحشة والحقد على المؤمنين، والحسد، وبغض المؤمنين، وحب البدع ونحو ذلك.

رابعا: التعامل مع أهل المعاصي

من خلال ما قدمنا من تفصيلات حول الكبائر والصغائر واختلاف العلماء في حدها، يتبين أنه يتنوع التعامل مع من أتى بحرام بين، ولا يمكن أن يتفق على صورة معينة يوحد فيها التعامل، من الإنكار باليد واللسان والهجر وتوقيع العقوبة والتعذير.

فهناك من الناس من شاع فحشهم وظهرت معاصيهم بين الناس وسقطت مروءتهم، فهؤلاء يختلف الحال معهم بحسب المصلحة والمفسدة؛ لكن من فطرة المسلمين أنهم يحذرون أولادهم من صحبة هؤلاء، فقد تجد رجلا جاهلا ينكر على ولده شرب الدخان والخمر وعمل ما يسقط المروءة. لكنه لا يفعل ذلك مع غير من له ولاية عليه.

فتختلف القضية ما بين صاحب الولاية، مما بين العالم، وما بين آحاد الناس في الخلطة والهجر والعتاب والأمر والنهي. وما بين العقوبة زجرا والعقوبة حدا.

لكن الشيء المتفق عليه هو:

١ ـ بغض المعاصي وبغض من يأتيها

٢ ـ وجوب الإنكار على من يستطيع باليد أو اللسان

٣ ـ هجر المعصية وهجر أصحابها عند فعلها وترك مجاورتهم

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾[النساء:١٤٠]

٤ ـ اللين والرفق في دعوة أهل المعاصي وتخويفهم بعذاب الله، وما توعد الله به من فعلها. تبعا لهدي النبي ﷺ مع الناس.

هذا ما تيسر لي جمعه واختصاره بفضل الله تعالى ورحمته ومنه وكرمه، فإن كنت وفقت فأسأل الله تعالى العون على شكره، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان وأسأل الله تعالى العفو والغفران وصلي الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

سيف النصر على عيسى حدوت

الفهرس

مقدمة **٣**

القسم الأول :تمهيد **٨**

الفصل الأول: إطلالة على عنوان الكتاب **٩**

المبحث الأول :تعريف الفقه **١٠**

أولا: تعريف الفقه لغة ١٠

ثانيا: الفقه في الاصطلاح: ١٠

ثالثا: الفرق بين الفقه والعلم ١٠

المبحث الثاني: المخالف ١٢

أولا: تعريف المخالف لغة: ١٢

ثانيا: المعنى الاصطلاحي: ١٢

ثالثا: الفرق بين الاختلاف في المذاهب والاختلاف في الاجناس ١٢

رابعا: أنواع المخالفين ١٣

خامسا: أنواع الخلاف: ١٤

المبحث الثالث: التعامل ١٦

أولا: التعريف اللغوي: ١٦

ثانيا: المعاملة في اصطلاح العلماء ١٦

الفصل الثاني: الحضارات السائدة قبل مبعث النبي وأحوال جزيرة العرب . ١٨

المبحث الأول: الحضارات السائدة قبل مبعث النبيﷺ **١٩**

المطلب الأول: الحضارة الفارسية..... ١٩
المطلب الثاني: الحضارة الرومانية..... ٢٣
المبحث الثاني: أحوال العرب قبل البعثة.....٢٩
المطلب الأول: موقع العرب..... ٢٩
المطلب الثاني: الملك في العرب..... ٣١
أولا: الملك في اليمن..... ٣١
ثانيا: الملك بالحيرة..... ٣٤
ثالثا: الملك في أرض الجزيرة..... ٣٦
المطلب الثالث : الحالة الاجتماعية والدينية في الجزيرة..... ٤٠
المطلب الرابع: ما هو الهدف من ذكر ما تقدم ؟..... ٤٦
المطلب الخامس: بماذا سميت هذه المرحلة بعد ظهور الإسلام؟ **٤٨**
المبحث الثالث: أهم الأحداث التاريخية قبل مولد النبي ﷺ.....٥١
أولا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بن وهب..... ٥١
ثانيا: حادثة الفيل..... ٥٢
الفصل الثاني: حياة النبيﷺ قبل البعثة ٥٣
أولا: ولادته ﷺ..... ٥٤
ثانيا: نسبه ﷺ ٥٥
ثالثا: رضاعته..... ٥٥
رابعا: حادثة شق الصدر..... ٥٧
خامسا: رجوعه إلى أمه ووفاة آمنة وكفالة جده عبد المطلب ٥٨

سادسا: رحلة النبي ﷺ مع عمه إلى الشام ٦٠
سابعا: شهوده ﷺ حرب الفِجَار (٥٨٠ ـ ٥٩٠) ٦٢
ثامنا: حلف الفضول..... ٦٣
تاسعا: حياته ورعي الغنم..... ٦٤
عاشرا: زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها ٦٨
حادي عشر: اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة المشرفة مع أهل مكة ٧٠
الفصل الثالث: غراء حراء وبدء الوحي..... ٧١
المبحث الأول: غراء حراء..... **٧٢**
المبحث الثاني: الرؤيا الصادقة ونزول الوحي..... **٧٣**
المبحث الثالث: ظهور دعوة النبي ﷺ وأساليب أهل مكة في مجابهتا **٧٦**
١ ـ السلبية في التعامل مع الحدث ٧٦
٢ ـ شكوى قريش..... ٧٧
٣ ـ المساومة مع النبي ﷺ..... ٧٧
٤ ـ الاستهزاء والسخرية والكذب..... ٧٨
٥ ـ التشويه عليه وصرف الناس عنه والحيلولة بينهم وبين سماع القرآن..... ٨٠
٦ ـ استعمال العنف..... ٨١
القسم الثاني: تعامل النبي ﷺ مع المخالف في العهد المكي ٨٢
الفصل الأول: السرية في الدعوة..... ٨٣
تمهيد..... ٨٤
تعريف الدعوة..... ٨٤

والدعوة بهذا المفهوم..... ٨٥
سرية الدعوة..... ٨٦
المبحث الأول: أسباب سرية الدعوة ٨٨
المطلب الأول: ضعف النبي وأصحابه في مواجهة أهل مكة ٨٩
هل تصلح الدعوة السرية في عصرنا هذا..... ٩١
الوجه الأول: الاقتداء بالنبي ﷺ لا يرتبط بزمن دون زمن..... ٩١
الوجه الثاني: كل زمن من الأزمان فيه ما يشبه العهد المكي ٩٢
الوجه الثالث: فائدة سرية الدعوة مستمرة..... ٩٤
المطلب الثاني: ضعف عقلية أهل الباطل في تحمل الحق جملة واحدة ٩٥
١ . العصبية التي تتحكم في أهل مكة..... ٩٦
٢ . العصبية القبلية في أهل مكة ٩٨
٣ . رسوخ معتقدات الشرك في نفوسهم ٩٩
المطلب الثالث: تهيئة المناخ الملائم لقبول هذه الدعوة ١٠١
المبحث الثاني: الأسباب التي اتخذها النبي ﷺ لدعوته السرية ١٠٣
المطلب الأول: دعوة أقرب الناس إليه ١٠٣
دعوة أبو بكر الصديق..... ١٠٥
ثمار دعوة الصديق ١٠٨
إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ١١٠
التعامل مع المخالف من خلال هذا الحدث..... ١١٢
المطلب الثاني: التنقل خفية ١١٥

المطلب الثالث: اختيار المكان..... ١١٨
أولا: اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان لاجتماع الصحابة مع النبي ﷺ ١١٨
أسباب اتخاذ النبي ﷺ دار الأرقم خاصة..... ١١٩
ثانيا: بيعتا العقبة الأولى والثانية..... ١٢١
أسباب اختيار المكان في بيعة العقبة..... ١٢٦
المطلب الرابع: اختيار الوقت..... ١٢٨
المطلب الخامس: عدم التفريق بين عبد وحر..... ١٣٠
المبحث الثالث: من ثمار الدعوة السرية والدروس المستفادة منها ..١٣٢
الفصل الثاني: الحوار ١٣٦
تمهيد: ١٣٧
المبحث الأول: معنى الحوار وشروط وأهدافه على وجه الاختصار ١٤١
أولا: معنى الحوار..... ١٤١
ثانيا: شروط الحوار الناجح ١٤٢
١ ـ النية الصادقة ١٤٢
٢ ـ اللين والرفق مع المحاور ١٤٣
٣ ـ الإقرار بالخلاف..... ١٤٦
٤ ـ العلم..... ١٤٧
٥ ـ الأمانة في النقل..... ١٤٨
ثالثا: أهداف الحوار..... ١٥٠
المبحث الثاني: نماذج من حوارات النبيﷺ مع المخالفين له في العهد المكي .١٥٣

أولا: النبي ﷺ مع عتبة بن ربيعة ١٥٣
المستفاد من حوار النبي ﷺ مع عتبة بن ربيعة ١٦١
ثانيا: حوار بين أبي جهل والنبي ﷺ: ١٦٤
ثالثا: حوار ﷺ النبي مع أبي طالب..... ١٦٥
رابعا: ضماد بن ثعلبة مع رسول الله ﷺ ١٦٦
ويستفاد من هذا الحوار ١٦٧
خامسا: حوار جعفر بن أبي طالب مع النجاشي ملك الحبشة..... ١٦٨
المبحث الثالث: ثمرات حوارات النبي ﷺ.....١٧٣
الفصل الثالث: اعتزال المنكرات وترك المكان للمخالف ١٧٤
المبحث الأول: اعتزال منكرات المخالف وعدم المخالطة ١٧٥
المبحث الثاني: ترك المكان للمخالف إذا تحقق من وجوده ضرر ١٧٧
الفصل الرابع: الصبر على الأذى..... ١٨٣
تمهيد: ١٨٤
المبحث الأول: معنى الصبر وحقيقته ١٨٦
المبحث الثاني: أقسام الصبر ١٨٩
المبحث الثالث: مواقف من سيرة النبي ﷺ والصحابة في الصبر ١٩٢
الموقف الأول: النبي ﷺ وصدود عمه أبي لهب ١٩٢
الموقف الثاني: رمي الجزور على رأسه..... ١٩٣
الموقف الثالث: موقف الصحابة وآل ياسر رضي الله عنهم..... ١٩٤
الموقف الرابع: الحصار ١٩٧

وأهم ما يمكن استنباطه من هذه المقاطعة الآتي..... ٢٠٠
وأفوض أمري إلى الله ٢٠٧
الفصل الخامس: الاستنصار على مخالفه بقوة خارجة تحميه من بطشه .. ٢٠٩
المبحث الأول: تمهيد ٢١٠
المبحث الثاني: الطرق التي سلكها النبي ﷺ في الاستنصار بمن خارج مكة ٢١٤
١ . عرض الإسلام على قبائل العرب في مكة ونواحي مكة ٢١٤
٢. عرض الإسلام على الناس في موسم الحج ٢١٥
بيعة العقبة الأولى: ٢١٦
بيعة العقبة الثانية: ٢١٧
٣ . الخروج للطائف ٢٢٢
الفصل السادس: الحيطة والحذر في التعامل مع المخالف ٢٢٤
المبحث الأول: الحيطة والحذر في سرية الدعوة..... ٢٢٥
أولا: الحيطة والحذر في بدأ الدعوة ٢٢٥
ثانيا: الحيطة والحذر في اختيار بمنزل الأرقم بن أبي الأرقم ٢٢٦
ثالثا: تكوين مجموعات دعوية سرية..... ٢٢٨
المبحث الثاني: الحيطة والحذر في الحس الأمني لدى الصحابة ٢٣٠
أولا: قصة أم جميل..... ٢٣١
المستفاد من القصة..... ٢٣٣
١ . إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار: ٢٣٣
٢ . استغلال الموقف لإيصال المعلومة:..... ٢٣٤

٣ . استغلال الموقف في كسب عطف العدو..... ٢٣٤
٤ . الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:..... ٢٣٥
٥. تخيّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمة..... ٢٣٥
ثانيا: قصة إسلام عمر بن الخطاب وما فيها من الحس الأمني لدى الصحابة. ٢٣٦
المستفاد من قصة إسلام عمر رضي الله عنه..... ٢٣٩
١ . نعيم بن عبد الله وحسه الأمني في الآتي ٢٣٩
أ . إخفاء الشخصية عن العدو: ٢٤٠
ب . الحصول على المعلومة:..... ٢٤٠
ج . درء خطر العدو وصرفه عن هدفه:..... ٢٤٠
د . التضحية بأفراد من أجل المصلحة العامة: ٢٤١
٢ . خباب بن الأرت وحسه الأمني في الآتي:..... ٢٤١
أ . حرصه على التخفي في دعوته حتى لا يراه أحد..... ٢٤١
ب . هدفه الأساسي هو تبليغ دعوة الله تعالى..... ٢٤٢
٣ . فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد وحسهما الأمني ٢٤٢
أ . إخفاء إسلامها عن عمر ٢٤٢
ب . ترك الذهاب إلى رسول الله..... ٢٤٢
المبحث الثالث: الحيطة والحذر في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ٢٤٣
أولا: قصة الهجرة: ٢٤٣
ثانيا: الخطوات المستفادة من الهجرة في هذا الشأن ٢٤٥
الفصل السابع: التركيز على تعليم الناس التوحيد والأخلاق..... ٢٤٩

تمهيد ٢٥٠
المبحث الأول: التوحيد والعقيدة..... ٢٥٢
تصور الصحابة لله قبل البعثة وتربية النبي ﷺ ٢٥٣
وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة..... ٢٥٤
وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة ٢٥٥
مفهوم القضاء والقدر وأثره في تربية الصحابة رضي الله عنهم..... ٢٥٦
معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان..... ٢٥٨
تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام ٢٥٨
نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات ٢٥٩
المبحث الثاني: التربية العبادية والأخلاقية..... ٢٦١
الفصل الثامن: وسائل أخرى ٢٦٧
المبحث الأول: عدم العنف في التعامل..... ٢٦٨
أولا: نظرة عامة على اللين والرفق..... ٢٦٨
ثانيا: من مواقف النبي ﷺ في اللين والرفق في العهد المكي..... ٢٧٠
الموقف الأول: النبي مع عتبة بن ربيعة ٢٧٠
الموقف الثاني: النبي ﷺ في مرض عمه أبي طالب..... ٢٧١
ثالثا: بعض مواقف الشدة من النبي ﷺ ٢٧٣
المواقف الأول: النبي يتوعد أهل مكة بالذبح ٢٧٣
الموقف الثاني: النبي ﷺ يدعو على صناديد قريش..... ٢٧٤
المبحث الثاني: إنزال الناس منازلهم..... ٢٧٦

المبحث الثالث: ترك السياسة ٢٧٩
أولا: معنى السياسة ٢٧٦
ثانيا: المقصود من المبحث..... ٢٨٠
كلمات للشيخ عائض القرني في السياسة.....٢٨٢
المبحث الرابع: مراعاة المصلحة والمفسدة والانضباط بضوابط الشرع..٢٨٨
المبحث الخامس: التعايش السلمي مع المخالف ٢٩٠
أولا: حرصه على بقائه في مكة ٢٩٠
ثانيا: دعوته القائمة على تآلف المجتمع ٢٩١
ثالثا: قبوله لأمانات أهل مكة عنده..... ٢٩٢
رابعا: حرصه على اللين والرفق في التعامل مع الكفار ٢٩٢
خامسا: صبره على آذاهم وأمر أصحابه بذلك لعلهم يرجعون..... ٢٩٣
الفصل السادس: المستفاد من هذا البحث في الوقت المعاصر ٢٩٤
المبحث الأول: أصناف الناس ٢٩٥
الصنف الأول: مشركون..... ٢٩٥
الصنف الثاني: أهل كتاب وهؤلاء قلة لا تذكر..... ٢٩٧
المبحث الثاني: التعامل مع أهل الكفر..... ٢٩٩
المطلب الأول: أصناف الكفار..... ٢٩٩
الصنف الأول: أهل كتاب ٢٩٩
الصنف الثاني: أهل وثنية..... ٣٠١
المطلب الثاني: التعامل مع الكفار ٣٠٢

الوجه الأول: بصفة عامة..... ٣٠٢
الوجه الثاني: التعامل مع الكفار بصفة مفصلة..... ٣٠٥
القسم الأول: أهل الكتاب..... ٣٠٥
أ . إذا كانوا هم الأقوى عدة وعتادا ٣٠٥
ب . إذا كانوا أهل ضعف وبالنسبة للمسلمين ٣٠٨
القسم الثاني: التعامل مع الوثنين ٣١٢
المبحث الثالث: التعامل مع أهل البدع ٣١٤
أولا: معنى البدعة..... ٣١٤
ثانيا: من هو المبتدع..... ٣١٦
ثالثا: المشركون والابتداع ٣١٧
ثالثا: أقسام البدع..... ٣٢٠
القسم الأول: البدعة الكفرية ٣٢٠
ضوابط البدعة المكفرة ٣٢٠
القسم الثاني: بدعة ليست كفرية ٣٢١
ومن البدع الخطيرة التي انتشرت في زماننا: بدعة امتحان الناس..... ٣٢٢
رابعا: حرمة البدع وخطورتها ٣٢٧
خامسا: التعامل مع من وقع في بدعة ٣٢٧
المبحث الرابع: التعامل مع أهل المعاصي..... ٣٣٠
أولا: معنى المعصية ٣٣٠
ثانيا: أقسام المعاصي ٣٣١

الاعتبار الأول: من حيث غلظ المعصية..... ٣٣١
الاعتبار الثاني: تقسيم المعاصي باعتبار الحقوق ٣٣٤
الاعتبار الثالث: باعتبار ظهورها وخفائها ٣٣٤
رابعا: التعامل مع أهل المعاصي..... ٣٣٥
الفهرس ٣٣٣